

الباب الأول
الوثنية

obbeikandi.com

مدخل

من المؤسف يقيناً أن نحفظ على مدى قرون، ثم نعمق المحافظة في العصر الحاضر، بتشويه الصورة الحقيقية لديانة العرب قبل الإسلام، فنظل نتمسك بمقولات زائفة، تزعم أن العرب لم يكونوا وثنيين بالمفهوم الخالص للوثنية، كما جرت وتجري عند عبدة الأوثان وأتباع الشيطان في كل زمان ومكان، وإنما كانت وثنيتهم شركاً: أي كانوا يؤمنون بالله، ولكنهم جعلوا له نظائر أرضية. وقد دُبجت حتى الآن كتب قديمة وحديثة حول هذا الموضوع، حاولت دوماً أن تجمع وتستقصي، ما يثبت هذا الشرك، بل تعدى الأمر إلى القناعة بوجود مجموعة متميزة في العصر الجاهلي: هي جماعة الحنفاء. وعلى الرغم من أن الكتاب العرب على اختلاف مشاربهم يذكرون كثيراً من الشعائر الدينية، التي هي من صلب الوثنية (محلية وعالمية)، فإنهم يستمرون في التفريق بين العرب وغير العرب في الوثنية أو الشرك. ولا تجد إلا ما ندر من يلغي هذه التفرقة، فيتحاشى الإبهام والغموض.

ونحن هنا إذ نقر بالجاهلية، مفهوماً أدبياً عاماً مغايراً للإسلام، فإنما نؤكد أن الجاهلية في المفهوم الديني: هي الوثنية، سواء بسواء، وما الاحتفاظ بمسمى الجاهلية إلا لأنها التعبير الذي اختاره الإسلام نقيضاً لمبادئه وقيمه السماوية، وأن أولئك الذين يصرون على أنهم يدرسون/يدرسون، الجاهلية لا الوثنية، يغالطون أنفسهم، ويتجنون على الحقيقة كثيراً، ولو عاملوا تراث ما قبل الإسلام معاملة أي تراث وثني، لاستطاعوا التوصل إلى نتائج صادقة مبهرة. ومن المؤكد أن تلك المغالطة التي رانت على الدراسات طويلاً، تعود إلى متابعة المستشرقين الذين ما فتئوا يرددون فكرة الشعوب السامية، فعزلوا

شعوب المنطقة من جبال طوروس حتى بحر العرب عن بقية شعوب العالم تحت مسمى «السامية». ولم يكتفوا بدراسة هذه الشعوب على أنها وحدة لغوية واحدة، بل افترضوا أن لها خصائص فكرية ونفسية تخالف سواهم^(١).

وجاء المحدثون من العرب، فخلطوا بين الأفكار، فضيقوا الدائرة، وزعموا أن العرب غير سواهم، وأن دين العرب ليس هو وثنية خالصة، وليس هو توحيداً صافياً، وإنما هو شرك، مثل قولهم: «ولا شك أن العرب الجاهليين قد عرفوا الله الخالق...»^(٢).

«كان منهم من كان يعبد الله ولكنه أشرك بعبادته بعض الأصنام والأوثان وربما لم يكن يتعبد إليها بل جعلها وسيطاً وشفيعاً لدى الله عز وجل»^(٣).

«ولم يتخلوا عن كفرة الإله الخالق للكون، وإنما هم أشركوا بعبادته عبادة الآلهة الأخرى المتمثلة في الأوثان والأصنام على اختلافها»^(٤).

«كانوا في غالبيتهم متذبذبين بين مختلف المعبودات لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فعاشوا في فراغ ديني قاتل، وكان بهم ظمأ لري العبادة الحققة، ملأهم فراغ العقيدة السمحة»^(٥).

والأغرب من هذا هو عزل وثنية جنوب الجزيرة العربية عن

(١) البناء، الله في العقيدة الإسلامية، ص ٣٨.

(٢) عواد، أديان العرب، ص ١٩١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٨٨. وانظر الفيومي، في الفكر الديني الجاهلي، ص ص ١٦٣ - ٣٧٢.

(٤) الشامى، الشرك الجاهلي، ص ٥٤. وانظر ص ص ٢٨ - ٢٩.

(٥) زلط، التأثير النفسي للإسلام في الشعر، ص ١٧. وانظر رأيه المسرف، ص ١٤. وانظر مسعود، الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام، ص ١٤٦.

شمالها، فالباحثون إذ يفصلون بينهما تارة، يعودون، فيجمعون بينهما مرة أخرى، ويضعون الموقف في اليمن في صف الموقف الديني لعرب الشمال، على أساس أن هؤلاء عرب قاطبة، ثم يُلحون على وصف هذه الوثنية بالسذاجة والبساطة، على الرغم من أن اليمن كانت ذات حضارة عريقة، وكانت وثنية أيضاً، الأمر الذي يجعل هذه الوثنية ذات مستوى حضاري يضاهي حضارة سومر وابل وبلاد اليونان، بل الهند أيضاً. ومع أن مكة، مثلاً، كانت مركزاً تجارياً مرموقاً، أثبت رجاله أنهم عتاة، وأنهم وَاَعُونَ جداً بتدينهم، فإننا ما زلنا نسمع أن العرب كانوا على بقايا من توحيد، وأنهم كانوا سذجاء بسطاء:

«أكثرية الأمة، وخصوصاً القبائل التي تنسب إلى الشعب المضري عكفت على نوع بسيط من الدين الفتشي...»^(١).

«كانت معتقدات قداماء العرب الدينية بسيطة»^(٢).

ومن تلك الأقوال غير المدققة أو المتحرزة ما ذكره العبيدي في مقاله عن الأوثان في الجاهلية، إذ قسم الشرك إلى ثلاثة هي:

١ - الاعتراف بالله الواحد واعتبار الملائكة شفعاء عنده مع جعل الأوثان رموزاً مادية للملائكة.

٢ - عبادة الجن.

٣ - إشراك ما لا يعقل ولا يسمع.

ثم استنتج قائلاً:

«ومهما كانت قيمة الآلهة التي عبدتها العرب فهي لم تبلغ من

(١) الحوت، في الميثولوجيا العربية، ص ١٢٦.

(٢) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ١٦٥.

وانظر جواد علي، المفصل، ج ٦، ص ١١٨.

الشأن والقيمة ما بلغته آلهة الإغريق في القديم. فقد عظم الإغريق آلهتهم وشيدوا لها الهياكل وأقاموا التماثيل واختلقوا حولها الحكايات والأساطير فكانت آلهتهم إلى جانبهم في حلهم وترحالهم وفي حروبهم وأفراحهم وفي جميع مواسمهم وأعيادهم. وقد اختص كل إله بصفة من الصفات فكان للخير إله وللشر إله وللجمال إله وللخمر إله وهكذا. فوجود الآلهة عندهم لم يفرضه الخوف من المصير ولا الحاجة إلى دفع شر متوقع وإنما حتمه شعور الإغريق الحاد بضرورة وجود آلهة لا تكتمل صورة الإنسان إلا بها ولا يُعرف الكمال إلا بواسطتها. أما الجاهلي فلم يلجأ إلى الآلهة إلا لخوفه من الدهر الزباب ففكر في نفسه قبل أن يفكر في آلهته وسعى إلى صون ذاته لا إلى صون آلهته والتضحية من أجلها فلم يقدمها لذاتها بقدر ما قدمها لكونها قادرة في نظره على دفع الضر عنه».

مع أنه سبق أن قال:

«والجدير بالذكر أن الأنصاب التي اتخذت في البدء رموزاً مادية للإله قد أمست بالنسبة إلى أقوام من العرب عديدين بعد مدة من الابتهاال لها والعبادة آلهة حقيقية لا مجرد شفيعة أو نائبة عن الإله».

ونكاد نرى في مثل هذه المقولة كل الاتجاهات في دراسة الوثنية العربية حتى الآن، فهم يقولون بالشيء ونقيضه في آن، ويتنقلون من فكرة إلى أفكار. وليس ذلك قاصراً على الدراسات العربية الحديثة، بل حتى عند كبار المستشرقين^(١)، وكأن العرب أمة غير الأمم، وبشراً

(١) انظر (R.E) معج).

Noldeke, the Arabs (IR), PP.659-673.

وانظر Gardet, Allah, Ency. of Islam, V.1, PP. 406-414.

فهو لم يستطع الخروج بقول محدد، وإنما مكرر.

ليسوا كبقية البشر؛ ونسوا تاريخ الدعوة الإسلامية في طورها الأول، وتناسوا صراع الإسلام مع أعدائه من وثنيين، ويهود مشركين في طوره الآخر. أما المعابد والحكايات والأساطير، فإن ما وصلنا عنها نزر يسير، بل أين معابد اليمن، وبيوتات الآلهة في كل الجزيرة العربية؟ إن الفرق بين الإسلام والمسيحية، هو أن المسيحية تكيفت مع الوثنية، في حين أن الإسلام جَبَّ ما قبله، وقضى عليه.

وإذا كنا متفقين على أن جِيلة الإنسان وطبيعته هي التوحيد، فإننا لا بد أن نتفق أيضاً على أن الإنسان خُلِقَ جهولاً، وأنه يَنْجَرُ إلى الكفر سريعاً، وأنه يخضع لإغراءات الحياة ومبازلها، فينسى، ويعود ينسب فضل وجوده وتكوينه إلى نفسه، ويستولي الشيطان، عدوه الأبدي على قلبه، فيستسلم للمادة، حتى يبدل الفطرة والجِيلة بمعبودات من ادعائه ولغوّه. والعرب ليسوا بدعاً بين الأمم، فقد تحولت الحنيفية سريعاً بعد إسماعيل عليه السلام، إلى مجارة غيرهم في عبادة غير الله. ويمكن اختصاراً للشواهد في هذا الموضوع أن ننظر في حال بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، فهؤلاء الذين من الله عليهم بالنجاة، ووعدهم الحياة السعيدة والمكانة الفضلى، تحولوا في حياة نبيهم وقائدهم، إلى وثنيين، ربما أشد وثنية من الوثنيين أنفسهم، وإن هذه الحقيقة صريحة في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

والواضح تماماً أن مفهوم وثنية العرب ظاهر في القرآن الكريم، ولا يحتاج إلى كبير عناء، لو كنا نتدبر أو نتأمل، ولم نقلد التيار العام ونسايره، ومن ذلك أيضاً أن القرآن الكريم لم يشر إلى الحنيفية على عهد الرسول ﷺ، بل خلاف ذلك كان غير ذلك هو الثابت الصحيح،

فالرسول ﷺ تلقى الرفض والإنكار من قومه، وأثبت القرآن الكريم أن الوثنية راسخة في العرب رسوخاً شديداً:

﴿وَلْيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿وَإِنَّكُمْ لَذِكْرٌ لَّكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ [ص: ٤].

[ص: ٤].

وتتضح لنا هذه الرؤية بجلاء عند النظر في السور المكية، وذلك حسب الأوضاع التالية التي سنعرضها في:

الفصل الأول العقيدة

أصل تأليه الآلهة
البنوة

لم تكن حقيقة ذكر عيسى ابن مريم في السور المكية موجهة إلى النصرى فقط، بل كانت موجهة أيضاً إلى الوثنيين في مكة الذين كانوا يحتجون بأن آلهتهم (بنات الله)، قال تعالى:

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوَابِّهِمْ أَوْلِيَاءَ...﴾
[الكهف: ١٠٢].

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ...﴾ [مريم: ٣٥].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ﴾ (٨٨) ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرَّتْ الْجِبَالُ هَدًّا ۗ﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ﴾ (٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ﴾ (٩٢) [مريم: ٨٨ - ٩٢].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۗ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۗ﴾
[الأنبياء: ٢٦].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ۗ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ۗ﴾ (١٦) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۗ﴾ (١٧) [الزخرف: ١٦ - ١٧].

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدٌ فَاتَا أَوَّلَ الْعَبِيدِ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١].

﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ يَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَكَدَّ اللَّهُ وَلاَئِهِمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٨].

وتوضح لنا الآيات السابقات أن فكرة البُتوة فكرة وثنية خالصة، سابقة على اليهودية والنصرانية، وهذا واضح في سورة التوبة المدنية:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىُّ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَسَاءَ اللَّهُ أَنْ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ولقد احتج الله على وثني العرب بمثلهم الذي ضربوه، أي ببنة عيسى ابن مريم، فجاء في الآيات المكية:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا يَا إِلَهَئِنَّا خَيْرٌ أَمُّهُ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدًّا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٦٠].

ولا بد أن الوثنيين في مكة، حينما ضربوا عيسى ابن مريم مثلاً، كانوا يُشيرون إلى الأفانيم الثلاثة في كنانس النصارى، والتي كانوا يسمونها أصناماً، على غرار أصنامهم، قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلاِبَيِّنَاتٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣].

الآلهة بنين وبنات

وقد خاطبهم الله سبحانه، على أن الأوثان إناث، كما يعتقدون،

فقال:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَيْنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
سُبْحٰنَهُمْ وَتَعَالٰى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿أَفَأَمَّنُّكُمْ رَبِّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا
عَظِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمٰنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ
سَتَكُنَّ شُهَدَاتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال:

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ
مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ
أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ نَسِيَةً الْآثِنِ ﴿٢٧﴾﴾
[النجم: ٢٧].

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور: ٣٩].

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].

[٨٧].

وأن عبادة تلك الأصنام كانت تنفيذاً لإرادة الله:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَحْزُمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠].

رمز الأنثى

إن هذا يعني أن الوثنيين اعتقدوا أن الملائكة هم بنات الله،

فليس لله - جل شأنه - أولاد ذكور في اعتقادهم، ومن ثم جَسَمُوا هذه الملائكة في أشكال وثنية متعددة (كالعزى - مناة - اللات)، وعبدوها على أنها الصلة بالإله، فهي الآن آلهة، ويعود هذا التفكير إلى المعتقد الوثني الذي يرمز بهذه الأوثان الأنثوية، إلى الإلهة: الأم (الأنثى) - الأرض، كما هو الحال في الأساطير السومرية والسامية والفرعونية، ثم وجدنا إلى جانب الإلهة، الإله الذكر: هبل، سواع، ود... إلخ. أي: الإلهة عشتار والإله تموز؛ الإلهة إزييس والإله حورس؛ الإلهة مناة والإله هبل؛ الإلهة الشمس والإله القمر.

إذن، فالأم - الأنثى *The Mother Goddess* كانت في البدء عذراء، ثم أصبحت زوجة، لتتولى دور الإنجاب، فيأتي الابن الإله *The Young God*، وهكذا اتصلت في الأساطير السومرية نينهورا ساقا *Ninhurasaga* بإنكي *Enki*، فولدت عدداً من الآلهة، وعلى هذه الشاكلة تستمر التحولات^(١).

والذي يثبت القرآن الكريم، أن عبادة الملائكة، كانت بإيحاء من الشيطان:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

أي إن عبادة الملائكة والجن هي عبادة الأرواح؛ قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَنِي ﴿٤٠﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبا: ٤٠ - ٤١].

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ إِرْيَاكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ

(١) James, *The Ancient Gods*, PP. 77-112.

إِنَّمَا وَهَمَّ شَهْدُوكَ ﴿١٥٠﴾ أَلَّا إِتَمَّ مِنْ إِفْكِهِمْ لِقَوْلِكَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَّ اللَّهُ
 وَابْتِهَمَ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ
 ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنؤَا بِكَيْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ
 ﴿١٥٨﴾ [الصفات: ١٤٩ - ١٥٨].

وكان الجن شياطين^(١)، فلما جاء الإسلام آمن منهم من آمن،
 كما في سورة الجن، وسورة الأحقاف، ٢٩ - ٣٢.
 وعلى أساس من هذا المعتقد المكيين في نفوسهم، والذي
 تشرّفته عقولهم وأفئدتهم، تكونت اعتقادات راسخة في أذهانهم بأن
 هذه المعبودات هي:

الأولياء

قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الزخرف: ٦].
 ﴿وَالَّذِينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
 الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩].

الشفعاء

قال تعالى:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا
 وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣].

الأنداد

قال تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ﴿٩﴾﴾ [فصلت: ٩].

(١) انظر عن الشيطان، Carus, Devil, PP. 1-49.

الآلهة

قال تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢].

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١].

﴿وَإِذَا رَمَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذَّكَّرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦].

ومهما تعددت التأويلات، فإن كل هؤلاء كانوا يخضعون للشيطان:

﴿يَبْنَؤُا دَامًا لَا يُفْنِنُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرْتِكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

الشرك عند العرب

رأينا أن معبودات الوثنيين قاطبة تأتي في مَصَافِ الإله، فهي الآلهة الأنداد. ومن هنا كان مفهوم الشرك. قال تعالى:

﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل: ٢٠].

﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

لقد غابت وحدانية الله جل وعز، عندهم في تشنية شديدة، جعلت الآلهة هي التي تبدو في الواجهة. قال تعالى، ناقلاً عمق تلك

الثنية، وجذورها الممتدة في تفكيرهم وموروثهم الثقافي:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

﴿أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا
لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سَجْرٌ كَذَابٌ ﴿٤﴾
أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ اشْتَوَى
وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ
إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِلِقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٤ - ٧].

الشرك البشري

وعلى هذا، يكون مفهوم الشرك: هو عبادة غير الله؛ سواء عند العرب، أو عند غيرهم، وفي الأمثلة التي ضربها الله سبحانه وتعالى عن المشركين قياس على هذا، إذ إن الدعوة الدينية السليمة هي دعوة التوحيد التي نادى بها الأنبياء من قبل نوح عليه السلام ومن بعده، حتى محمد ﷺ.

مثل نوح

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩] [وانظر، هود: ٢٦].

مثل عاد

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥] [وانظر، هود: ٦١].

مثل ثمود

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ثَمُودَ آخَاهُمْ صَلِحًا قَالِ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

مثل مدين

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ شُعَيْبًا قَالِ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] [وانظر، هود: ٨٣].

الكفر

وإذا وضعنا الشرك: أي تعدد الآلهة، في مقابل التوحيد: أي عبادة الله وحده، فإن الشرك، يعني في الحقيقة: الكفر؛ كما أن هؤلاء المشركين: كفار، وبذلك يخرج الشرك عن أن يكون اعترافاً ضمنياً بوحدانية الله، ليصبح: تمسكاً بعبادة غير الله، أي: الوثنية. ونجد هذا مبيّناً في السور المكية الموجهة إلى الوثنيين خاصة. قال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرْسِلُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لِنَا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِيلَ لَهُمْ هَبْ تَسْمَعُ﴾ [المعارج: ٣٦].

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩].

﴿مَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنهَلَهُمْ رَبُّنَا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢٣].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُنَا لَهُمْ صَحَابٌ الْمَشْشَمَةَ﴾ [البلد: ١٩].

الأسطورة

وقد تحدّدت رؤية هؤلاء الوثنيين إلى دعوة التوحيد تحديداً دقيقاً في إصرارهم على تبني موقف وجودي من الأديان السماوية المؤمنة بالله، على الرغم مما خالطها من زيف وتحريف. إنهم يعدّون بعث الرسل والأنبياء، وإثبات الألوهية أسطورة لا يقبلها العقل، ولا يرتاح لها الشعور. قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رِيكُزًا قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

[النحل: ٢٤].

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ (٢) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا آفَاكُ أَقْرَبَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤) ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٥) [الفرقان: ٢ - ٥].

وهكذا، فإن توحيد الربوبية يقربه الكافر والمسلم، أما توحيد الألوهية، فنفي الألوهية عن غير الله، وإثباتها لله وحده^(١).

(١) ابن الشيخ عبد الله، في عقائد الإسلام، ص ٤٠، ٣٤ - ٤٩.

الفصل الثاني شمولية الوثنية

الرأي الخاص بالعرب في الوثنية

موقف العرب الوثنيين

يمثل هذا الموقف: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والأخنس بن شريق، والأسود بن عبد يغوث^(١)، الذين كانوا يتولون الدفاع عن الموقف الوثني بشكل عام:

﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلِافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَازٍ مَشَامٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِّلْحَيْرِ
مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أُن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا
تُنَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ١٠ - ١٥].

الرأي العام

يبلغ تمسك الوثنيين برفض فكرة الدين الإلهي، والتشبث بالدين الوضعي، أي: الوثنية، حد انتشار مفهوم الأسطورة بينهم جميعاً، حتى لا نجد أياً منهم يختلف عن الآخر، دون أن يهتز إيمانهم، أو تتخلخل معتقداتهم، فكأنهم جميعاً نسخة واحدة، يصدرون عن قلب واحد، ويرددون صوتاً واحداً، قال تعالى:

﴿وَلَّيْلَ يَوْمَهُدِ الْمُكَذِبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ
إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُنَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المطففين: ١٠ - ١٣].

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٢٩، ص٧١.

الوثنية العالمية

رأينا أن الشرك - وهو الطابع الوثني العام لكل الأديان البدائية - مقام أساساً على ثنائية: الله/الرب، بحيث لم يعد هناك مجال للانتقال إلى الله، إلا عن طريق أحد هذه الآلهة. وهذه هي الصورة الكلّية للوثنية، كما تمارسها الشعوب التي لم تتقبل المسيحية أو اليهودية، قبل مجيء الإسلام. وقد وصل الأمر بدعاة الوثنية إلى التحدي، والمجابهة العلنية، لأي اختراق لشعائرها وطقوسها، كما أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك، عندما ضرب الأمثال بقصة قوم لوط (سورة الذاريات وسورة القمر)، وفرعون وثمود وعاد (سورة الحاقة)، وأصحاب الأيكة وقوم تبع (سورة ق)، والمؤتفة (سورة النجم) وأصحاب الرس (سورة ق).

ويمثل هذه الوثنية العالمية:

قوم نوح

وهكذا كان دفاع قوم نوح عن وثنتهم:

﴿ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ ءَالِهَتَكَ وَلَا تَدْرَأُ وُدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣].

قوم إبراهيم

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُمْ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات: ٨٥ - ٨٦] [وانظر، مريم: ٤٦].

﴿ أَحِبَّنَا إِنَّا فِئَكُمَا مِنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

الأقوام الأخرى

﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِمَّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٢٧]

﴿ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ صَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ فَكْرُهُمْ وَمَا كَانُوا بِفَعُولِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧ - ٢٨].

ومن الأدلة على تراسل الأفكار بين الوثنيين عامة أن:
 «الهند تزعم أن البقر ملائكة سخط الله عليها، فجعلها في
 الأرض، وأن لها عنده حرمة...»^(١).

مفهوم التوحيد

وإزاء تعدد الآلهة هذا، فليس هناك في دعوة الإسلام إلا الله
 وحده، إنه القاعدة المطلقة:

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التغابن: ١٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠].

وسورة الإخلاص هي الأساس:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾

وهل هناك أصدق حديثاً بعد هذا من تفنيد الله سبحانه وتعالى
 لمزاعم الوثنيين قاطبة، وكشفه جل وعلا لواقع اعتقادهم، حينما
 يخاطب البشرية جمعاء بكل وضوح، فيقول جل شأنه:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا
 نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ
 يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ
 يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ
 الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٣ - ٤].

فحتى الادعاء بأن الآلهة هي الوساطة بينهم وبين الله جل شأنه،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٨، ص ٣٨٣.

والتي تمر بمعتقد البُتوة، ثم ما يداخلها من ولاية وشفاعة.. إلخ، إن هي في حقيقتها إلا ستار، أو خداع نفسي يخفيان إن واقع الاعتقاد المباشر في الآلهة نفسها، أي الارتباط بالأرض - الأم - الأثني.

مع ملاحظة أن هذا الادعاء الذي أبطله الله تعالى ذكره، لم يأت في القرآن الكريم كله إلا في هذه الآية في قوله تعالى في السورة المكية [الزمر: ٣]:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾.

وينبغي أن نفهم دعوى: «تقربنا إلى الله زلفى»، في إطار تلك الثنائية: الربوبية/الألوهية، (أي: الاعتراف بتوحيد الرب الخالق للكون، وإنكار توحيد الله) والثنية، إذ إن التفكير البشري واحد في التفرقة بين: الربوبية - الألوهية، والثنية.

وقصورنا في فهم الآية السابقة هو في عدم تمتها وما بعدها، وهو أن ذلك الادعاء كذب وكفر. قال تعالى:

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

ولا يقتصر هذا على الوثنيين، بل يدخل فيه: اليهود، حين قالوا: عزيز ابن الله؛ والنصارى، حين قالوا: المسيح ابن الله^(١).

مع التنبيه إلى التذكير بفرقة واختلاف الوثنيين أنفسهم في معتقداتهم:

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ج٧، ص ١٦١. وانظر مثل هذا القول في الأوس والخزرج قبل الإسلام، الطبري، تفسير الطبري، ج٢، ص ٣٠٥.

والله الذي يذكرونه، هو كبير الآلهة، وليس الله المنزه عن التمثيل، كما سنرى.

وليس هذا فحسب، بل إن المشركين، أي: الكفار الوثنيين، لم يكتفوا بظاهر إيمانهم بهذه التنشئة، وخداع ذواتهم بادعاءات باطلة. وإنما هم في قرارة أنفسهم يرونها الأولى، وهي الصائبة. قال تعالى:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

والمعنى نفسه نجده مرة أخرى مكرراً في قوله سبحانه:

﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧].

وإن أية دعوة إلهية هي ضد معتقداتهم، وحمَلَتْها يوصفون في كل الأديان الوثنية، بأنهم: إما سحرة، أو مجانين، أو شعراء، أو معلمون، أو كهان... إلخ.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ فِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

أي: إذا كانت الدعوة لله، أي دعوة التوحيد، فإن هذا مرفوض من قبلهم؛ ذلك لأن الله عندهم، هو غير الله، كما جاءت به الرسل والأنبياء، وإنما هو الله الذي له شركاء، كما يعتقدون.

الفصل الثالث

«الله» في الوثنية

توحيد الربوبية

التصور الآخر لله أن هناك فرقاً بين الوثنية والشرك، على أساس المنظور السابق لتثنية: الإله - الآلهة (الرب - الأرباب).

وهذا في حقيقته خطأ جسيم، وقصور في الإدراك، وعدم استيعاب للصورة الشمولية للوثنية، ذلك أن كل وثنية في العالم تؤمن بوجود قوة خارقة عليها/ قوة مطلقة/ *Supreme/ Super Power/ Being/ Deity*^(١). والإله فوق الآلهة، أو الرب فوق الأرباب، ثم يكون التدرج في مستويات الآلهة نفسها، وبعد أن عرفنا تلك الرؤية الوجودية الشمولية للكون والحياة في نظر الوثنيين، فإن القرآن الكريم، يحفل بتوضيحات شتى لها، فهم كما يقول القرآن الكريم:

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣].

(١) انظر توضيح هذا المفهوم في:

Tylor, *Religion in Primitive Culture*, PP. 419-441.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥].

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ أَفَرَأَيْتُمْ
مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ
أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٨].

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُوَفِّكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].
وقد أطلق الوثنيون مسمى الرب على الإنسان، ولم يطلقوا
مسمى الله الوثني، قال الحارث بن حلزة في الملك عمرو بن هند،
«وهو الرب الشهيد»^(١). وقال الأعشى في عمرو أيضاً: «ربي كريم لا
يكدر نعمة».

توحيد الألوهية

وتكشف الخاتمة: ﴿أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾، على أن أولئك الوثنيين
إذ يقرون بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض،
ومسخر الشمس والقمر، ومنزل الغيث، بل خالقهم هم أنفسهم، لا
يعيرون ذلك الإقرار أهمية تذكر، إذ هو إقرار باللسان، وليس بالفعل
والممارسة، أي إنهم - في واقع الأمر - ينكرون إنكاراً صريحاً الإلهية،
إنهم كفار، كما قال تعالى:

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ [فصلت: ٩].
فهم مع اعترافهم بأن الله خلق الأرض مثلاً، ينكرون الدلالات
الكونية على وحدانية الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

(١) النحاس، شرح المعلفات، ج٢، ص ٥٧٧.

فالوثنيون مجمعون على إثبات الله، وإرجاع الخلق له:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَلِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُحْيِيهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٩].

وهم مع ذلك يعيشون في أجواء الوثنية التي عمادها فعل الشيطان: السحر، «أنى تسحرون».

وليس أدل على هذا التوجه من تكرار قوله تعالى عبارة: «من دونه» أو «من دون الله»، مما يثبت الانقطاع والاتصال بالآلهة وحدها، وهذا هو الكفر، أو الشرك قبل الإسلام - الذي يُخلط بالشرك بعد الإسلام بممارسة أعمال وثنية في إطار الإسلام - ثم الاعتقاد بفكرة النبوة. قال تعالى في سورة الفرقان، السورة المكية، الآيات: ١ - ٣:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَمْ يُلْمَأْ سَمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يُخْلَقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

وتجد في هذه الآيات اختصاراً شاملاً للمعتقد الوثني عامة: عربياً وعالمياً، بل للصورة الدينية قبل الإسلام:

«العالميين»: وثنيون - يهود - نصارى - صابئة، كلهم في مستويات متقاربة.

«لم يتخذ ولداً»: دعوى كل الجماعات الدينية دونما استثناء.

«شريك في الملك»: التجسيم والتجسيد والتصوير عندهم.

«الهة...»: لها قوة النفع والضرر والإماتة والإحياء، والبعث.

وإذن، فإيمان الوثنيين جميعاً وليس العرب فقط، في حقيقته، إيمان بالوهية الآلهة، أو ربوبية الأرباب، قال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨].

﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

فلا اعتقاد بقوة خارجية «الله»، إنما هو اعتقاد اسمي، وليس فعلياً؛ إذ توجه عبادتهم إلى الآلهة مباشرة:

﴿قَالُوا آجِئْنَا بِتَأْفِكِنَا مِنَ الْمَلِئِينَا﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وهكذا كانت تلك الشراكة، أو الثنية:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادُوا لِيُضِلُّوكُمْ أَوْ يُزِيلُوا أَعْلَانِيَةً أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَنْتُنَّ يَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلْنَا مِنْ عَالَمِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

أما قوله تعالى في سورة الزخرف:

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾﴾.

فلا يعني إيمانهم بـ«العزیز العليم»، ذلك أن هذين الاسمين اسمان إسلاميان، ولكنهم كانوا يعيدون تعبير القرآن الكريم، كما قال تعالى في سورة الزخرف نفسها الآية ٢٠:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ...﴾.

إذ هم في الواقع يكفرون بالرحمن:

﴿...لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ...﴾ [الزخرف: ٣٣].

إنهم في تصورهم أن معبوداتهم التي تمثل الملائكة والجن، هي جزء من الله جل شأنه (أي تلك العلاقة المادية):

﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

جاء في تفسير التحرير والتنوير عن قوله تعالى السابق: ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

«ليس ذكر الصفتين العُلَيَّين من مقول جوابهم، وإنما حكى قولهم بالمعنى، أي ليقولن: خلقهن الذي الصفتان من صفاته، وإنما هم يقولون:

«خلقهن الله»... وذلك هو المستقرأ من كلامهم نثراً وشعراً في الجاهلية»^(١).

«... وتخصيص هاتين الصفتين بالذكر من بقية الصفات الإلهية لأنها مضادة لصفات الأصنام، فإن الأصنام عاجزة عن دفع الأذى.

والتقدير: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله، وإن سألتهم: أهو العزيز العليم»^(٢).

ويصل بنا القرآن الكريم في حديثه عن معتقد الوثنيين إلى أنهم يكفرون بالله العظيم، وهم وإن اعترفوا به، فإنما يعترفون به اسماً وليس فعلياً. فالله جل وعلا هو الله في الجاهلية والإسلام.

لقد قال العقاد عن الفجوة بين المعتقدين:

«كان عرب الجاهلية... يعرفون اسم الله كما نعرفه اليوم،

(١) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٢٥، ص١٧٦.

(٢) المرجع نفسه، ص١٦٧.

وانظر عن لفظ الجلالة «الله»:

Wellhusen, *Reste Arabischen Heidentums*, pp. 215-224.

ولكن الذي وصفوه والذي وصفه الإسلام لا يتشابهان بغير الحروف،
وبينهما من الفارق كما بين أبعاد الأرباب»^(١).

وربما حمل كلام العقاد هذا مغالطة غير بيّنة، انطلاقاً من متابعته
لآراء الغربيين في منشأ التوحيد، إذ إن الله في القرآن الكريم واحد،
يتفق في ذلك الوثني والموحد، إلا أن الوثني يجعل مع الله إلهاً آخر،
أي هناك ند لله، له الاسم نفسه. وهو ما بينه عبد الوهاب يحيى،
الذي لم يشر إلى العقاد، إذ اقتضى في ذلك أثر المستشرق وينت
Winnet في مقاله: «الله قبل الإسلام *Allah Before Islam*»، وهي الفكرة
التي يطرحها المستشرقون، وتهدف إلى جعل الإسلام تطوراً طبيعياً للديانة
الوثنية، أي: «يمثل خطوة أولى على سبيل التوحيد»^(٢)، يقول:

«يكون المقصود بلفظة «الله» هنا هو المعبود الجاهلي وليس الله
سبحانه وتعالى كما يعرفه المسلمون. والصفة الأساسية لهذا المعبود
وهي أنه على رأس المعبودات الأخرى عند أهل قريش... ومن
الواضح أن «الله» الذي يتحدث عنه القرشيون الجاهليون هو «الله»
المعبود الجاهلي الذي كانت عبادته قائمة إلى جانب المعبودات
الأصغر وهو ما يتطابق مع [المعتقد] اللحياني»^(٣).

التجسيم عند العرب

جاء الإسلام يطالب الوثنيين عامة بالإيمان بالله وحده وإلغاء
الآلهة أياً كانت صفتها، فهم يؤمنون حقاً بالقوة العليا (الله)، ولكنهم
لا يتوجهون إليها مباشرة بالعبادة، وإنما من خلال تلك الوسائط
المادية، وخطاب القرآن الكريم لهم لتوحيد الله هو أمر بالانفصال عن

(١) الله، ص ٧٣.

(٢) العرب في العصور القديمة، ص ٣٨٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٨٦ - ٣٨٧.

القوى الأخرى، وهذا هو جوهر التوحيد؛ أما هم فلا يتصورون الله مجرداً، وإنما مجسماً، وعلى هذا تأتي كل المعطيات الوثنية في العالم. وهكذا عبد عرب الجنوب الشمس، وعبد عرب الشمال (سورية) الزهرة، وعبد آخرون القمر. قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

وهنا محور الوثنية، إنهم في اعتقادهم يعبدون الله: «إن كنتم إياه تعبدون»، ولكن من خلال ممثل آخر لله، فالوثني لا يمكنه أن يتصور الله مجرداً عن التمثيل «استكبروا». ولهذا قالوا: «تقربنا إلى الله زلفى».

أي: إن الوثنيين عامة يعترفون بأن ما يعبدونه ما هو إلا شكل مجسّم، غير أنهم يعبدون الأرواح التي تنمّص هذه الآلهة، وإن كانوا في الحقيقة يعبدونها^(١).

وفيدنا تأكيد القرآن الكريم على هذه التثنية الله - الشمس / القمر، في الآية السابقة إلى ما طرحه قبل قليل عبد الوهاب يحيى، وإلى ما قد يكون هو الذي علّق بذهن العقاد، أي الله جل جلاله - الله المجسّم. يقول يحيى مرة أخرى:

«ظهر معبود تحت اسم «الله» في سورية ثم رفعه السوريون إلى مرتبة الإله الأكبر. وقد انتقلت عبادته إلى اللحيانيين بهذه الصفة (صفة كبير الآلهة)... ثم انتشرت في فترات لاحقة... وقد ظهر المعبود «الله»... بهذه الصفة في نقوش اللحيانيين منذ القرن الخامس ق.م.

(\) Kato, Theological Pitfalls, P.20

وعند الثموديين في نقوش ترجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد
و... يبدو أنها كانت قد سادت وتمكنت في قبيلة قريش على الأقل
قبل ظهور الدعوة المحمدية^(١).

وكذلك جاء في النقوش الصفوية على أنه أحد الآلهة: «ه له/
هالاه/ الله»^(٢).

فإذا فصلنا هذا الكلام عما يخص لفظ الجلالة «الله» في القرآن
الكريم، من حيث العقيدة البشرية عامة، جاز لنا أن نقول مع العقاد:
«الله الذي وصفوه والله الذي وصفه الإسلام لا يتشابهان»، كما
جاز لنا أن نقول أيضاً مع يحيى:

«المقصود بلفظة «الله» هنا هو المعبود الجاهلي وليس الله سبحانه
وتعالى». كما يمكن أن نقول مع بارندر:

«كان لفظ الجلالة «الله» يشير إلى كبير الآلهة في الجاهلية»^(٣).

ومن ثم نستدل على أن ذكرهم الله في غير الجدل عن العقيدة
والإيمان، يعني «الله» في المعتقد الوثني.

فهم حقاً يحلفون بالله، ويقولون: لله دره، حاشا لله... إلخ،
بيد أن هذه الأقوال مفرغة من مضامينها الدينية التي توحى بها، فالله
هنا ليس الله المجرد عن التمثيل، بل الله الأكبر، أو كبير الآلهة الذي
التبس عليهم بالله العظيم، كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام:
﴿قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾^(٤)
[إبراهيم: ٦٣].

(١) العرب في العصور القديمة، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٢) جواد علي، المفصل...، ج٦، ص ٣٣٥.

(٣) Parrinder, *Asian Religions*, P.6.

أو كما قال الأعشى:

كَدَغْوَةٍ مِنْ أَبِي رِيَّاحٍ يَسْمَعُهَا لِأَهْلِ الْكُبَارِ^(١)

فقاله مفرد الآلهة، إله: *God/Gods*، أو هو «الأب» في المسيحية، أو «يهوه» في اليهودية.

ولا بد لنا من توضيح مما أوردناه سابقاً، فإذا كانت بعض الأقوام أوجدت مجسماً تحت اسم «الله»،، سيما ثمود، فإنه حتى لو لم يوجد مجسم بهذا الاسم عند قريش، فإن اللات تعكس ذلك التجسيم وتدل على أصل الاسم، كما وضح.

عند الأمم الوثنية الأخرى

المعتقد العام

يوضح رياض هذا المعتقد، فيقول:

«كانت هناك مجموعات مختلفة من الآلهة... ويكون هؤلاء جميعاً مجمع آلهة يرأسه إله كبير لكن نفوذه ليس حاسماً بالنسبة لتصرفات كل الآلهة الأخرى...»^(٢).

ويميز رياض بين نوعين من «الإله الكبير»، النوع الأول: ذاك هو الذي يظهر عند أصحاب الحضارات العليا القديمة، كما كان في مصر الفرعونية، وبابل وآشور واليونان والرومان. والنوع الثاني: ينقسم إلى قسمين، وهو خاص بالبدائيين:

١ - الإحياء أو الاستحياء *Animism*، الذي دعا إليها إدوارد تيلور: وفحواها الاعتقاد بوجود كينونة غير مفهومة وغير محسوسة، أو كائنات غير مادية قد تكون أرواحاً أو أشباحاً أو عفاريت للسلف أو

(١) اللسان، «لوه»، وانظر البغدادي، الخزانة، ج٢، ص ٢٦٦ - ٢٧٠.

(٢) الإنسان، ص ٥٦١.

الحيوان أو النبات أو أي من الجماد المحيط (نهر - بحيرة - جبل)... إلخ.

٢ - الاعتقاد في إله واحد كبير في السماء، لكنهم لا يتقربون إليه كثيراً... وعلى هذا فأنصاف الآلهة أكثر فعالية من الإله الواحد عند البدائيين.

ولكن رياض على الرغم من قوله: «نجد اختلافاً وظيفياً كبيراً بين الفكرتين. فعند أصحاب الديانات العليا نجد للإله الواحد كل القوى ولأفعاله كل التأثير على الناس، بالإضافة إلى أنه خالقهم ومميتهم وهو الذي يبعثهم من جديد في الآخرة. بينما لا نجد هذه الصفات الخلقية واللاهوتية عند إله البدائيين الواحد، كما أن فكرة الحياة الأخرى غير واضحة، وفكرة الخلق عندهم ليست مرتبطة بالإله مباشرة وإنما قد ترتبط به بطريق الصدفة. وتحل كثير من الصدق كل الفعل الإلهي في خلق الجماعات والناس. وبذلك فإن مجرد وجود فكرة الإله الواحد الذي في السماء عند بعض المجتمعات البدائية أو الأمية ليس دليلاً على التوحيد الغريزي «الفطرة» أو الإلهي... بل إن وجود هذا الإله لا يمنع وجود ممارسة أيديولوجيات أخرى كالاستحياء والمانا والسحر والعرافة»^(١).

ويعود رياض مرة أخرى ليقول:

«إن هناك عدداً من الدارسين يعتقد أن الوحدانية كانت أسبق على فكرة تعدد الآلهة»^(٢).

وهذا عدم ثبات على رأي محدد، ومن الواضح أن أصحاب الحضارات العليا، والبدائيين، كلهم سواء في تعاملهم مع الإله/ الآلهة.

(١) المرجع نفسه، ص ٥٦٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٦٢. وانظر، ص ٥٥٨ - ٥٦٢.

ولاحظ أنه يتحدث عن الفراعنة والبابليين والآشوريين، وهؤلاء كلهم وثنيون، دعا موسى عليه السلام فرعون إلى عبادة الله، فتظاهر بإنكاره، ودعا إبراهيم عليه السلام نمرود وقومه، فرفضوه. وأخيراً دعا محمد ﷺ العرب الوثنيين، فحاربوه.

نماذج وثنية

الفراعنة

وإن ما يشاع من أن الفراعنة موحدون غير صحيح إطلاقاً، فهم كالوثنيين عامة، آمنوا بالقوة العليا الغيبية، ثم خلقوا نداءً لها، ففي الأصل كانت القوة العليا، (نتر) بتاح، ثم حورس، أو الشمس، أو رع^(١). والتوحيد الذي يروج بين الكتاب هو التخلي عن القوة العليا وعبادة القوة المضارعة في عهد أخناتون، أي: الشمس. وهذا المعتقد هو الخطوة الوثنية المعتادة، كما جاء في الآية السابقة:

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ...﴾.

وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان فرعون:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَسُنْ عَلَى الطَّيْرِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله تعالى على لسان فرعون أيضاً: ﴿قَالَ لَيْنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

تباتل جابا Jaba في نيجيريا

نوم *Nom*: الإله الأعلى مسكنه في السماء.

(١) James, *The Ancient Gods*, P.71.

وانظر: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٠؛ وبقية الكتاب.

الشمس : نوم *Nom* .

ونوم هو خالق السماء والأرض، ولكن الجابا، مع ذلك، لا يتوجهون مباشرة إلى «نوم»، بل يصرفون كل طاقاتهم الروحية إلى الكهنة، والمعابد، والمذابح المقدسة^(١).

قبائل اليوروبا Yoruba النيجيرية

تعتقد اعتقاداً قوياً بالقوة العليا *Supreme Being*، ولكن ليس لها تصور واضح عنه، فهم لا يعبدونه، وإنما صلتهم بألهتهم الأرضية. وهكذا كثيرون غيرهم أيضاً^(٢).

النوبة

«ويؤمن سكان النوبا بإله قوي يسمونه في لغة (الدلنج) أكبر مجموعاتهم (بعل)، ولا يقوم بأعماله بنفسه بل يوكل بها عدد من الأرواح اسم كل منها (أرو). ولكل مجموعة من السكان في جبل أو قرية تنظيماؤها الدينية الخاصة بها. ويبني للآرو في كل قرية مكان يوضع فيه الطعام والشراب لتجد هذه الأرواح حاجتها منه عندما تنزل إلى الأرض. ويمثل الأرواح على الأرض كاهن هو (الكوجور) تتخيره الأرواح وتحدث عن طريقه إلى الناس وهو فاقد الوعي فإن مات اختارت غيره»^(٣).

ويقول العقاد:

(١) *Koto, Theological Pitfalls, PP. 30-31.*

(٢) *Ibid, P.35.*

(٣) شاكر، السودان، ص ٦٤. يقول أستاذنا عبد الهادي: يعني بعبارة «فاقد الوعي»، أي عندما تتلبسه الأرواح، يكون في حالة غير طبيعية، أي متصل بالآلهة: لعل «بعل» الذي ذكره شاكر، هو تل *Till* كما سيأتي.

«قبائل الهوثوثوت الإفريقية التي لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ولا يزال الناس منها يأكلون لحوم البشر تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء»^(١).

أي: إن الرابط بين القوة العليا (الله)، في الوثنية، والتجسيد («الله» عند العرب والساميين - أو أي اسم آخر) - هو الشعور بالحُلُولِيَّة، أو التَّقْمُّص، بحيث يبدو الاثنان واحداً؛ ومن هنا كان الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، نحو الله الواحد الأحد، في حين أن العقلية الوثنية كانت - وما زالت - لا تفرق بينهما، ولهذا كانت فكرة البنوة.

وعندما كان الله سبحانه وتعالى يخاطب الوثنيين بأنهم يعترفون بأنه خالق الكون، ومنزل المطر، والمنقذ وقت الضيق... إلخ. كان يؤكد على تعميق هذا الاعتقاد الأزلي؛ إذ تزعم قبائل الدوجون *Dogon* الأفريقية، مثلاً، أن الإله «أما *Amma*»، خلق النجوم والشمس والقمر، ومع ذلك، فهم يعتقدون بالبنوة، وهناك في جبال كارلنجا بالسودان الإله موسلا *Musalla*؛ ولدى أقزام تيري *Tiri* الإله مانجو *Mangu*. وعند بعض قبائل البانتو *Bantu* الإله مولونجو *Mulungo*. أي: إن خلق الإنسان والسموات والأرضين (الأجرام السماوية)، والظواهر الطبيعية: (المطر، والرياح، والزرع، والماء...)، هو من ذلك الإله الأعلى.

(١) «الله»، ص ص ٣٠ - ٣١. وانظر بقية الكتاب.

والواقع أن كتاب العقاد يعد ترجمة لما قاله الغربيون حتى عصره، عن منشأ الديانات، ففي عصره وما قبل عصره كان أوج اشتداد حركة الدراسات الأنثروبولوجية. ولهذا نجده يخلط كثيراً في مفهوم التوحيد خاصة. انظر موقفه من توحيد أخناتون، ص ص ٧٠ - ٧٤. وانظر قوله مثلاً: «عبادة «أتون» هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد»، ص ٦٧. وبهذا ينسخ العقاد الدعوات السماوية منذ الأزل للتوحيد.

ونتبين هنا أن مفهوم التوحيد مفهوم إلهي، صحب الإنسان منذ خلقه الأول أي: «الفطرة»، ثم عاد الإنسان نفسه، فخلق أنساقاً من عنده، تمثلت في كل المظاهر الوثنية؛ وهذا ما حدث مع بني إسرائيل، بعد خروجهم من مصر، فقد سارعوا إلى عبادة العجل، وما يزال نبيهم وخليفته حَيَّين، ونسوا فضل الله عليهم، أي إن كلا الاثنين يأخذ مسمى واحداً، الخالق الأزلي، ثم الخالق المباشر في تصورهم.

ونجد على هذا النسق، عند قبائل الإنجاسانا *Ingassana*:

تل: الإله أصل الكون وخالقه.

الشمس: تل الصغير.

وعند قبائل شمال جبال النوبة:

أبراد *Abrade*: الإله الكبير.

الوسيط الروحي، أو الشخص الذي تقمصه روح الإله، أو روح الأسلاف: إبراد (الصغير).

وعند قبائل جنوب جبال النوبة:

موسلا: الإله (الكبير) - القوة الكبرى.

موسلا ماتيتيك، والا ما دابو *Mussala maa Titik, Walla maa*

dappw: القوة الصغرى التي تجسدت في الكجور *Kujur*، أو التي حَلَّت فيه.

ويمكن تحديد المعتقد الوثني في الألوهية بمعطيات مستنبطة من المادة الأثنوجرافية المتاحة عن تلك الشعوب الوثنية وثيقة الصلة بالألوهية.

أولاً: اعتقاد الشعوب الوثنية في إله أسمى أو خالق متعال، كلي القدرة، منعزل عن البشر، يكتنفه الغموض إلى حد كبير.

ثانياً: قد يغلب عليها طابع التعدد كما نجد لدى الدينكا الإله الأسمى والآلهة العشائرية، وكما نجد عند اليوربا حيث الإله الأعظم «أولودومار» خالق كل شيء وآلهة أخرى أقل مرتبة لها معابدها، وكهنتها وأعيادها واحتفالاتها. وكما نجد لدى قبائل الأنقسنا حيث الإله «تل» أصل الكون ومصدر الحياة، إلخ. . .

ثالثاً: يعتقدون أن هذه الآلهة دائمة الحركة وجودها وحضورها دائم، وأن رؤية الآلهة واردة في إدراكهم، وإن كان بعضهم يقصر هذه الرؤية على الزعماء الروحانيين أو الوسطاء ممن لهم حق الامتياز الشعائري.

رابعاً: على الرغم من الإيمان المطلق بفكرة الألوهية (الوحدانية أو التعدد) فإنهم لا يهملون الآلهة العشائرية أو القبلية أو الزعماء الروحانيين، إنهم يدركون أنها أقل قدرة ولكنها أكثر تأثيراً وفاعلية لأنها أكثر قرباً من الآلهة. ومن ثم، فإن قنوات الاتصال بالآلهة أو الكائن الأعلى على حد زعمهم قد تكون عن طريق الطوطم أو زعيم روحي أو تعويذة أو أي شيء. . . إلخ.

خامساً: إن ثمة ارتباط بين الآلهة وقوى الطبيعة الخفية غير المدركة.

سادساً: إن البناء الكهنوتي وما يحويه من شعائر وطقوس وثيقة الصلة بالسحر والممارسات السحرية والشعوذة والأرواح، يسخر بطريقة أو أخرى لخدمة الآلهة بقصد تحقيق التجانس بين الإنسان والإله، واستبعاد التنافر الكوزمولوجي أو التغييرات في الظروف البيئية كالحفظ والجفاف والوباء فضلاً عن المرض والموت والحظ العاثر، وهنا يأتي دور القربان للسيطرة على القوى الطبيعية الخفية^(١).

(١) إسماعيل، تأثير الإسلام، ص ١٧، ٣٧ - ٥٠ وما بعدها.

فنحن هنا أمام تصور صريح للعلاقة الوثنية بالقوة العظمى (الله) جل شأنه، وهو التصور الذي جاء الإسلام...، لمحوه، والقضاء عليه. أما منشأ تلك العلاقة الوثنية، فهو أن الإنسان، المولود على الفطرة، أي على التوحيد، خرج على تلك الفطرة، فجعل عبر مراحل زمنية مختلفة، مُمَثِّلاً للإله الأوحد، وصوره على الأرض، ثم حل بعده الملك، كما كان الفرعون في مصر، وتقاسم السلطة الدينية والزمنية معه بعد ذلك، كما في الديانة الأكديّة، ثم أصبح الملكُ مُمَثِّلاً للآلهة، كما في الديانة البابلية والإله الشمس، ومن ثم وجدنا في السامية الإله^(١):

إيلو: أي الله.

وكانت المرحلة الوثنية تبدأ بتعيين إله للمدينة، ثم تحولت إلى الإله والملك، ورمز لها بقرنين للحاكم، ثم افتقرت السلطتين، فهذا يمثل السلطة الدينية، وذاك يمثل السلطة الزمنية، وكان لحمورابي قرنان^(٢).

وهكذا خرج الإنسان إلى عبادة غير الله، أي إلى الوثنية.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ [الذاريات: ٥٠].

= والكتاب قيم جداً في فهم الوثنية، سواء من حيث علاقة الكوجور، الذي يشبه الكاهن في الجاهلية، ومثال الكاهن شيق الذي تظهر عليه حالات مشابهة في التقمص، أو في مختلف العبادات عن الإله والآلهة..
والجدير بالذكر أن للوسطاء الروحيين قوة تضارع قوة الإله، بل تفوقها، وهي أكثر خيراً منها.

انظر المرجع نفسه، ص ٨٩ - ١٠٢.

(١) انظر هذا في: المرجع نفسه، ص ٦٠ - ٦١.

(٢) كيري، كتبوا على الطين، حاشية المترجم، ص ٩٧.

لقد جاء الإسلام للقضاء على ذلك التصور الآخر، ذلك أن الوثني لا يمكنه تصور الفكرة المجردة، ولهذا يلجأ إلى التجسيم وتقريب التصورات.

وحبذا لو أعدنا دراساتنا لكل المفاهيم الوثنية، في ضوء الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة، فسنعلم الكثير عن الكُهَّان، والسُدنة، والعرافين... إلخ. وسنفسر كثيراً من العادات الجاهلية تفسيراً منطقياً معقولاً، بدلاً من الركام من الكتب والمقالات التي تكرر نفسها وتتخذ المشاهد للوصف، لا للتحليل.

وما الوثنية؟ أليست الوثنية هي الواضحة في قول الجعدي، في جاهليته:

قالت أمامة كم عُمزت زمانةً وذبحت من عتر على الأوثان
في مقابل قوله مسلماً:

وعُمزت حتى جاء أحمد بالهدى وقوارع تنلى من الفرقان^(١)

ألم يقل كعب بن زهير في معنى دقيق آخر لمفهوم الوثنية، في مقابل الإسلام:

أرادوا اللات والعزى إلهاً كفى بالله دون اللات كاف^(٢)

(١) شعره، ص ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٢) ديوانه، ص ٢٤٧.

الفصل الرابع

البعث والنشور في المعتقد الوثني (العربي)

المعتقد الإسلامي والمعتقد الوثني

أثبت القرآن الكريم المرتكزات الأساسية لأي معتقد وثني، كما تبيننا، وهي مرتكزات رئيسة في التفرقة بين دين التوحيد، ودين الأوثان. وهناك فارق جوهري بين التصورين؛ فعلى حين لا يرى الوثنيون إلا الحياة الدنيا فقط، يؤكد الإسلام على الحياة الأخرى؛ ويشير القرآن الكريم إلى أن الوثنيين من العرب لم يتركوا أبداً مجالاً للمناقشة والحوار حول رؤيتهم:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل: ٣٨].

فليست المسألة مجرد اعتقاد قد يهتز يوماً، وإنما هي فناعة جدلية سابقة، حتى إن أي عودة للتساؤل عن وجهة الصواب فيها معدود سلفاً نوعاً من الخلل العقلي والزيغ المنطقي:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُّمُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَغِيكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَبِئْسَ خَلْقٍ كَرِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَرَأَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِجَّةٌ بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سبأ: ٧ - ٨].

فالموقف المشترك حيال هذه القضية المصيرية يتلخص في أن الاعتقاد المبدئي هو: إن كان التفكير في وجود قوة إلهية واحدة

أسطورة، فإن ما يتأسس على ذلك من علاقات هو أسطورة أيضاً.
وهذا الموقف - بداهة - في التوحيد مرفوض كلياً:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا آيِنًا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾
[النمل: ٦٧ - ٦٨].

ومن ثم كانت قوارع القرآن الكريم تنرى على وثني العرب،
الواحدة تلو الأخرى، تلخ على دحض هذا المعتقد:

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ
ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الواقعة: ٤٧ - ٤٨] وانظر [الصفات: ١٦ -
١٧].

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عِظَامُهُ ﴿٣﴾﴾ [القيامة: ٣].

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ التُّرَابَ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠].

إن عقيدتهم تجاه البعث والنشور عقيدة ثابتة لا جدال فيها:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٦].

ويمكن اختصار هذه المواقف المتصلبة في قوله تعالى:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ
الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتٌ وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾
[القلم: ١ - ٣].

﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَرُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ
وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه:

«إن القوم لم يكونوا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، ولا يعرفون بعثاً ولا قيامة»^(١).

فلا حساب، ولا ثواب آتيان من الله، وإنما ترجع كل الممارسات الشعائرية لمعتقد ما بعد الموت، إلى تصورات وثنية ذات غايات محدودة، قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُظِنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ [الجنائفة: ٣٢].

البعث والنشور في المعتقد الوثني العالمي

إن معتقد العرب السابق ما هو إلا صورة من التشكيل الأكبر للوثنية عند البشر كافة، فهم مهما تباينت وجهات نظرهم حول الحياة والموت، لا يؤمنون أبداً بالحياة الثانية. وقد اتخذ القرآن الكريم من قوم نوح أنموذجاً لذلك التصور، فقال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [٣٢] وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِفِئَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [٣٣] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرْتُمْ [٣٤] أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [٣٥] ﴿هَبْهَاتَ هَبْهَاتٍ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [٣٦] إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [٣٧] إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٢ - ٣٨].

ويمكن تلخيص الموقف الوثني العام من البعث والنشور

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٠٦.

والحساب والعقاب، في هذا الحوار العظيم بين رمز الإيمان ورمز الوثنية، في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَنْتَمَا أَبَعَدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي
وَهُمَا يَسْتَفْغِيَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَايِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِرٌ الْأُولِينَ
﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ آيَاتِنَا وَالَّذِينَ
إِنَّمَا كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: ١٧ - ١٨] ^(١).

ومن ثم يقول تعالى في كشف معتقد الوثنيين عن الحياة الأخرى:

﴿... كَمَا بَيَّسَ الْكُفَّارُ مِن أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة: ١٣].

أي: لا حياة ثانية عندهم، ولا لقاء يوم يبعث من في القبور، حسب التصور الإسلامي.

(١) نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، قبل أن يسلم. السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص ١٩١.

الفصل الخامس

مظاهر الاعتقاد الأخرى في الوثنية

يتخذ بعض الكتاب من بعض طقوس الدفن عند العرب حجة يعترض بها على إنكار الحياة الأخرى، وكأن شيئاً مما ذكره القرآن الكريم ليس له أثر. يقول زيتون:

«إن اعتقاد هؤلاء الجاهلين في البعث أمر لا جدال فيه»^(١).
ويقول بافقيه:

«ومهما يكن من أمر عناية اليمنيين القدماء بالمدافن فإنه ينبغي ألا تفوتنا ملاحظة احتواء مدافنهم وخاصة الكهفية منها على أوان ومواد حياتية أخرى تدل مثلاً... على إيمان القوم بحياة أخرى بعد الموت»^(٢).

ويقول شامي:

«إن منهم - أي المشركين - من كان يؤمن بالحشر والمعاد، وإن بصورة ساذجة، فيوصي بأن تنحرق ناقته على قبره ليتمكن من يوم الحشر من الركوب عليها، وإلا مشى مع من يحشر ماشياً لا راكباً»^(٣).

ومن حجج هؤلاء الاستشهاد بالهامة والصدى والبلية:

(١) الوثنية، ص ٢٧١. وانظر جواد علي، المفصل، ج ٦، ص ١٢٩.

(٢) تاريخ اليمن القديم، ص ٢٠٦.

(٣) الشرك، ص ٢٩.

وَالْبَلَايَا رُؤُسَهَا فِي الْوَلَايَا مَا نَحَاتُ السَّمُومَ حُرَّ الْخُدُودِ^(١)

وهذا التصور هو ما نجده في قول مالك بن الربيع:

وَعَطَّلَ قَلُوصِي فِي الرِّكَابِ فَإِنَّهَا سَتُبْرِذُ أَكْبَادًا وَتُبْكِي بَوَاكِيَا^(٢)

وكذلك، فإن عقل البعير في دار المقتول له ارتباط بالمسلك السابق، لما له من علاقة بمقتنيات الميت^(٣).

وعلى الرغم من أن هناك من يزعم أن زهير بن أبي سلمى كان حنيفياً، مع أنه القائل:

فَأَقْسَمْتُ جَهْدًا بِالْمَنَازِلِ مِنْ مَنَى وَمَا سَحَفْتُ فِيهِ الْمَقَادِيمُ وَالْقَمَلُ^(٤)

أي: إنه كبقية الوثنيين يمارس عادة تقديس الدم، المحرم في الإسلام، وهو يؤدي ذلك في طقس وثني. بل هو القائل:

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبُ ثِمْتُهُ وَمَنْ تُخْطِي يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ^(٥)

حتى إنه يُضم إلى الزنادقة^(٦)، فإن شاهدتهم المتكرر هو قوله:

يُوَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلُ فَيُنْقَمَ

أو قول الآخر:

لَا يَشْرُكُنْ أَبَاكَ بِخَشْرٍ مَرَّةً عَذْوًا يَخْرُ عَلَى الْيَدَيْنِ وَيَنْكُبُ^(٧)

(١) السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص ١٠٥. الولايا: البرازع، وكانوا يتقبون البرذعة، فيجعلونها في عنق البلية وهي معقولة حتى تموت.

(٢) اللسان، «برد». القلوص: الناقة. الركاب: الإبل.

(٣) المصدر نفسه، «عقل».

(٤) شرح شعر زهير بن أبي سلمى، ص ٨٥. سحفت: خلقت. المقاديم: مقادير الرؤوس.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٤. العشواء: الناقة تعشو، أي لا تبصر ليلاً.

(٦) الجياووك، الحياة والموت، ص ٤٧.

(٧) السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص ١٠٥.

وانظر كتاب: الدم المقدس عند العرب.

ولا علاقة لهذين الشاهدين بالحنيفية، وإنما هو من صُلب معتقدات الوثنية التي تعتقد أن الموت مرحلة مرتبطة بالخصب والانبعاث: «وأيا كان الأمر فإن... الوثنيين لا يعتقدون في البعث أو أن ثمة ثواب وعقاب... ولا يعني حرصهم على دفن مقتنياتهم أن لديهم فكرة البعث أو الحياة الأخرى، وإنما مرّد ذلك إلى الخوف والتشاؤم من استخدام ممتلكات الميت ومقتنياته ومن ثم فإنهم يتخلصون منها بإيادها في قبره... الموت... انتقال إلى عالم آخر في حقيقة الأمر... امتداد لعالمهم ولكنهم لا يرون أن هناك بعثاً أو ثواباً أو عقاباً». إن يوم الحساب في نظر الوثنيين هو في أحسن أحواله ما نراه في شعائر الموت الفرعونية، أو في الأساطير اليونانية، وذلك مثل الاعتقاد في الوقوف أمام الإلهة أوزيريس والاثنين وأربعين مستشاراً قضائياً في قاعة الحقيقة الثانية *Double Truth* كما يتمثل هذا في كتاب الموتى *The Book Dead*^(١).

ويندرج ضمن هذا المعتقد قول لبيد، إذا كان البيت جاهلياً:
 وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا سَيَغْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كُشِفَتْ عِنْدَ إِلَهِ الْمَحَاصِلُ
 فإن لم يكن البيت جاهلياً، فهو كما قال ابن قتيبة:
 «يدل على أنه قيل في الإسلام، وهو شبيه بقول الله تعالى
 (وحصل ما في الصدور)»^(٢).

رمز الحياة الأخرى

لا يترك كشف القرآن الكريم عن معتقد الوثنيين عامة في البعث والحشر أي افتراض لإثبات وجوده حسب التصور الإسلامي ليوم

(١) إسماعيل، تأثير الإسلام على الوثنية، ص ١٦٦، وانظر ص ص ١٥٢ - ١٦٧.

Faukner, Book of the Dead.

وعند البابليين، حنون، عقائد ما بعد الموت.

(٢) الشعر والشعراء، ج١، ص ٢٨٠.

القيامة، والتفسير الطبيعي لمثل تلك الممارسات على تعدد مظاهرها وتنوعها، هو أنها رموز - في عقائد الوثنيين عامة دون خلاف - على عقيدة الولادة والانبعاث، فالموت والفناء، أي: الخصب والحياة^(١).

أي: إن الاعتقاد بالحياة الأخرى في المعتقد الوثني لا يتجاوز إطار الاتصال بالأرواح في العالم الأرضي، ولا شك أن الكهنة يتولون تفسير دور هذه الأشباح، بحيث لا يتجاوز تصورهم الحياة المعيشة السابقة للإنسان نفسه. ومهما بلغ الوثني في تصوره صلوات علوية، فإن هذه الصلوات تظل مشوشة في محيط الآلهة نفسها^(٢).

الدهريون

من الأمور العجيبة في دراسة وثنية العرب محاولة إيجاد تفرقة بين الوثنيين والدهريين، في حين أن كليهما واحد. فالوثنيون، مهما كانت أحوالهم - هم دهريون - بالضرورة. وهذا واضح فيما بينه القرآن الكريم عن عقيدة البعث عند الجاهليين، وليست هناك علاقة بين الإلحاد والدهرية، فالعالم القديم لم يعرف الإلحاد.

«ولم يعثر الباحثون حتى الآن على مجتمع بدائي ينفي وجود الطاقات والقوى فوق الطبيعية»^(٣).

(١) انظر عن الموت عند الوثنيين. *James, The Ancient Gods, PP. 168-198.*

(٢) *Middleton, Gods & Rituals, PP. 3-15.* وانظر، رياض، الإنسان، ص ٥٦٧.

(٣) رياض، الإنسان، ص ٥٦٢ - ٥٦٣. وانظر عن الدهرية، الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص ٨٥ - ٩٣.

والحقيقة أن هناك علاقة تلازم بين الثقافة والدين. وما ذكرناه هو ما يستدل عليه من القرآن الكريم؛ ومن إن البوذية التي يُزعم أنها لا تؤمن بالله، هي ديانة وثنية، كما تتمثل في معبوداتهم المحسّمة: تمثال بوذا مثلاً، أي إن أصولها ليست دهرية بالمعنى الفلسفي.

إن القرآن الكريم لا يفرق مطلقاً بين هؤلاء الدهريين وبين غيرهم من الوثنيين، وهو يثبت أن أي وثني دهري، إن منطلق الوثنيين أنهم دهريون:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَىٰ عِزِّهِ رَحْمَةً عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ
وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَ غَشْوَةٍ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ
إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٣ - ٢٤].

وفي هاتين الآيتين: «اتخذ إلهه هواه». أي الوثني دونما تحديد. «قالوا»، أي واو الجماعة يعود للوثنيين، وبعده: «حياتنا»، «يهلكنا»: (نا) المتكلمين، أي الوثنيين، وكذلك «يظنون»، واو الجماعة، أي الوثنيين!!!

مظاهر وثنية أخرى

ولا حجة بعد ذلك في طوافات الجاهلية وأذعياتها، فكلها كانت موجهة إلى الآلهة الوثنية، حتى إن الحج والاعتماد كانا لغير الله، وإنما للآلهة التي تسكن الكعبة، والتي حطم الرسول ﷺ أصنامها، إضافة إلى أن الحج والاعتماد لم يكونا قاصرين على الكعبة، بل كانت هناك مَحَجَّات وثنية أخرى غيرها، أي بيوتات. وكذلك الصلاة.

وهناك من يُرجع عقيدة «الْحُمْس»، إلى ما قبل الإسلام، وأنهم المتشددون في دينهم، المتحمسون له، وأنهم قبائل شتى^(١)، والأولى من هذا التفسير أن نقول: إن الحمس عقيدة وثنية قديمة صاحبت الوثنية في كل تاريخها، وأن الحمس طائفة دينية متخصصة في تسيير أمور الدين والقيام عليه، وأن كلمة الحمس لم تأت من الحماسة،

(١) جواد علي، المفصل، ج٦، ص ٣٦٤ - ٣٦٧.

وإنما جاءت من لبس السواد، لباس الكهنة. قال الأفوه الأودي:

كَالْأَسْوَدِ الْحَبَشِيِّ الْحَمْسِ يَتَّبِعُهُ سُوْدٌ طَمَاطِمٌ فِي آذَانِهَا التُّطْفُ^(١)

أو لأنهم يتخذون اللون الأحمر شعاراً لهم^(٢).

وأمر آخر له علاقة بالوثنية، وهو وصف بعض الشهور بأنها (شهور حرم). ومرجع هذا الوصف هو الاعتقاد في أن هذه الأشهر كانت رموز آلهة، أي كانت في الأصل أسماء آلهة عند العرب. فمثلاً جمادى الآخرة، كانت تسمى «حُثَيْن»، وكانت تُدعى: الرب. قال أحدهم:

أَتَيْتُكَ فِي الْحُثَيْنِ فَقُلْتَ رَبِّي وَمَاذَا بَيْنَ رَبِّي وَالْحُثَيْنِ^(٣)

ومعلوم أن شهر رجب كان شهر ذبح العتائر في الجاهلية.

الفرق الوثنية

من طبيعة البشر أن يختلفوا، وأن يشتد الصراع بينهم حول تفسير المعتقدات والأفكار. وما لم يتمسك الإنسان بمبادئ الرسالة السماوية، ويتجنب الدخول في الميتافيزيقيا والفلسفة، فإنه سيظل في دوامة الأفكار. والوثنيون ليسوا بدعاً في هذا، فهم أيضاً فرق وطوائف، كل جماعة دينية ترى أنها على حق وصواب، وأن غيرها على باطل وضلال، وهي لهذا تدعو اتباع الفرق الأخرى لتقبل طرحها الديني، وكان بعض وثني العرب يفعل هذا؛ يقول عبيد بن الأبرص:

وَتَبَدَّلُوا الْيَغْبُوبَ بَعْدَ إِلَهِهِمْ صَمًّا فَقَرُّوا يَا جَدِيلُ وَأَعْدَبُوا^(٤)

(١) اللسان، «طمطم».

(٢) وانظر كتاب الدم المقدس عند العرب.

(٣) التاج، «حزن».

(٤) ديوان عبيد، ص ١٣. أعذبوا: كُفُوا.

يقول الله تعالى عن فرق الوثنيين، الذين كانوا يعبدون، النجوم، والأحجار، والأشجار، والأرواح، والأصنام... إلخ:

﴿مُيَّبِنَ إِلَيْهِ وَأَنْفُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

بل بلغ الأمر بهذه الفرق والطوائف إلى التناحر والتطاحن فيما بينها لفرض معتقداتهم على بعضهم.

وهو صراع الآلهة فيما بينها في المعتقد الوثني.

الفصل السادس

الحنيفية

في القرآن الكريم

لا يبقى مجال، بعد تأكيدات القرآن الكريم على معنى الوثنية، لأن يزعم زاعم أن هناك ديناً بين العرب قبل الإسلام يعرف بـ«الحنيفية». فلم يذكر القرآن الكريم في السور المكية ما يشير إلى (الحنفاء) في عصر الرسول ﷺ، وإنما جاء ذكر الحنيفية كمرحلة انقطاع، تفصلها عن بدء البعثة النبوية فترة طويلة من الوثنية، أي إنها كانت محصورة في عهد إبراهيم عليه السلام، قال تعالى في سورة الأنعام المكية، آية ١٦١:

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَدِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١)، وقال الله تعالى كذلك في سورة يونس المكية، آية ١٠٥ - ١٠٦:

﴿وَأَنْ أَوْفَىٰ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥) وَلَا تَنْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ .

كما جاء في سورة النحل المكية، آية ١٢٠:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) .

وجاء في سورة النحل المكية أيضاً، آية ١٢٣:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

﴿١٣٦﴾

وجاء في سورة الروم، آية ٣٠:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا

بَدِيلَ لِمِخْلَقِ اللَّهِ ذَلِكَ أَلْيَبُتُّ أَلْفَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

﴿١٣٦﴾

وهنا نجد مقارنة بينة بين دعوة التوحيد، كما جاء بها إبراهيم عليه السلام، والتي تتمثل الآن في دعوة محمد ﷺ، والوثنية المعبر عنها بـ«ما كان من المشركين» الذين يدعون من دون الله إلهاً آخر، الأمر الذي يعني أن الوثنية كانت في ذلك العهد هي الغالبة السائدة.

فإذا انتقلنا إلى السور المدنية، وجدنا آية تقول:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ [البقرة: ١٣٥].

فنحن هنا أمام الحنيفية - دين الإحياء الجديد، الإسلام، دين التوحيد؛ وكل ما عداه من ديانات محرفة، أو وثنية خالصة، فهي شرك صريح، أي: كفر. قال تعالى في سورة البينة - المدنية، الآيات ١ - ٦:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ

الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ خُنِفُوا وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ

الْأُمَّةِ ﴿٦﴾ . وانظر [الحج، ٣١ - المدينة].

إذن، كان هناك جماعات ثلاث: الوثنيون، واليهود، والنصارى؛

ذلك أن كل الدعوات الدينية من إبراهيم عليه السلام حتى محمد ﷺ، هي في جوهرها دعوة إلى الإسلام، إلى التوحيد، إلى عبادة الله المعبود بالحق، ولكن ما من أحد أخذ صفة (مسلم) بعد أن حرّف اليهود والنصارى ديانتيهما، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَافُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيًّا...﴾ [آل عمران: ١٩] غير أتباع محمد ﷺ. قال تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] وقال سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي...﴾ [الحج: ٧٨].

وعلى هذا الأساس، فلم توجد هناك فرقة توحيدية (حنيفية) قبل البعثة النبوية، ولم يكن محمد ﷺ أحد أتباعها المصلحين *Reformers*، قبل هبوط الوحي عليه في غار حراء^(١)، بل كان الكون كله ينتظر، وكانت الظروف العالمية كلها مهيأة لاستقبالها. قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالإيمان، أي: التوحيد، أو الإسلام، أو الحنيفية، كان غير معروف، لا لمحمد ﷺ، ولا لبشر سواه، قبل بعثته ﷺ.

(١) انظر مثل هذه الفرية في:

Tisdal, The Original Sources of the Qur'an, PP. 260-273.

وانظر *Watt, Hanif, E.I, III, PP. 165-166.*

Rodinson, Mohammad, P.60.

قال تعالى في إبراهيم عليه السلام:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

أي إن الإيمان باق، مهما غلبت الأهواء، واستسلم الإنسان لغي الشيطان وإغوائه. وقد عبرت القرون والأجيال، وكلما جاء مجدد للتوحيد، من الأنبياء والمرسلين، جاء من غير الدين الحنيف، كما فعل اليهود مع هارون، بعد تغيب موسى عنهم مدة قصيرة. وتشوه التوحيد على يد اليهود، ثم النصارى، حتى جاء الرسول محمد ﷺ، فبعثه الله برسالة التوحيد ثانية:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٩].

أما موقف الديانات السماوية بعد تحريفها، فهو كما يقول تعالى:

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [١٥] ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [١٦] ﴿[الشورى: ١٥ - ١٦].

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُفُقَهُمْ أَرْكَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

إنهم والمشركين في الكفر سواء، وهذا صريح في سورة آل عمران المدنية، الآيتان ٧٩ - ٨٠، بعد ذلك:

﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتِنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيكَ وَالنِّسَاءَ آَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾. وانظر [النساء: ١٧١] [المائدة: ٧٢].

في الشعر

فإذا كان القرآن الكريم لا يثبت أبدأ الحنيفية كدعوة دينية معاصرة للرسول ﷺ، فكيف تكون معروفة في الشعر، وليس في الشعر الجاهلي كله ذكر للحنيفية، إلا قول أبي ذؤيب الهذلي:

عَرَفْتُ الدِّيَارَ لَأُمِّ الرَّهْيِ — مِنْ بَيْنِ الظُّبَاءِ فَوَادِي عَشَرَ
أَقَامَتْ بِهِ فَابْتَنَّتْ خَيْمَةً — عَلَى قَصَبٍ وَقُرَاتِ النَّهْرِ
أَقَامَتْ بِهِ كَمَقَامِ الحَنِيفِ — فِي شَهْرِي جُمَادَى وَشَهْرِي صَفَرِ
تَحْخِئِرُ مِنَ لَبَنِ الأَرَاكِ — تِ فِي الصَّنِيفِ بَادِيَةَ وَالحَضْرِ^(١)

ومعلوم أن أبا ذؤيب كان شاعراً مخضرمًا، أسلم مع قومه متأخرًا، فالبيت على هذا، قاله بعد أن أخذت دعوة محمد ﷺ طريقها إلى قلوب المؤمنين برسالته في بدء الدعوة في مكة، سنة ٦١٠م حتى الهجرة على الأقل، سنة ٦٢٢م، أي في زمن جاهلية أبي ذؤيب، و«الحنيف» في الآيات، هو المؤمن بالإسلام.

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١١٢ - ١١٣.

الظباء: معراج الوادي. قصب: مياه تجري إلى عيون الزكاياء. الأراكات: الإبل ترعى الأراك.

ومثل قول أبي ذؤيب، قول الهذلي الآخر، صخر الغي في وصف السحاب:

كَأَنَّ تَوَالِيَهُ بِالْمَلَا نَصَارَى يُسَاقُونَ لَأَقْوَا حَنِيفًا^(١)

وقد فسر السكري الحنيف، بأنه يعني هنا: المسلم. وهذا التفسير هو الصحيح والملائم تماماً للأحداث. فصخر الغي، الشاعر الجاهلي، يتحدث عن الفترة نفسها التي تحدث فيها أبو ذؤيب. وهذا الوصف السلمي للعلاقة الودية بين النصارى وأوائل الدعوة الإسلامية في مكة، هو تصوير للعلاقات الطبيعية بين النصارى والمسلمين في تلك الفترة. ولا يمكن أن يبدي النصارى احتراماً للحنيفي، إلا إذا كان بمعنى «المسلم»، إذ «الحنيف» في مفهومهم السابق على مجيء الإسلام، الضال، أو الوثني.

ويؤيد هذا التفسير ما رواه المبرد من أن بسطام بن قيس بن خالد الشيباني، فارس بكر، وابن سيدها، وكان نصرانياً، والذي قتله بنو ضبة عندما أغار على إبلهم بعد البعثة سنة ٦١٠م:

«كان مقتله بعد مبعث النبي ﷺ، فأراد أخوه الرجوع إلى القوم، فصاح به بسطام: أنا حنيف إن رجعت»^(٢).

أما إذا لم يكن «الحنيف» في قول أبي ذؤيب وقول صخر الغي السابقين بمعنى «المسلم»، فهو لا محالة يعني الصابئ؛ وذلك: «أنه يندر منهم من يسكن بعيداً من الأنهار لحاجتهم إلى العماد، وإلى التطهر بالماء». . . وهم «يبنون الهيكل من القصب كما تبني الخيام».

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٧. تواليه: أواخره. الملا: الأرض المستوية. يساقون: يسقون في عيدهم. لاقوا: احتفلوا به، وكفروا له، أي أحنوا رؤوسهم، وطأطأوها، تحية له.

(٢) المبرد، الكامل، ج ١، ص ٢٢٩.

وهم «يوقرون الكعبة». وهم: «يقيمون الصلاة مرات في اليوم... ولكنهم لا يسجدون في صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع، وهم يتوضأون قبل الصلاة ويغتسلون من الجنابة، ويعرفون نواقض الوضوء ولكنهم يغالون فيها»^(١).

وعلى هذا يمكن أن نأخذ بتفسير ابن منظور لمعنى «حنيف» في قول أبي ذؤيب، وهو:

«أقامت به كمقام الحنيف: إنما أراد أنها أقامت بهذا المترَّبَع إقامة المتحنف على هيكله، مسروراً بعمله وتدينه، لما يرجوه على ذلك من الثواب»^(٢).

أي إنه يعني: الصابئ.

ولا يخرج استعمال حسان بن ثابت لهذا اللفظ عما عناه سابقاً، قال في الفتح راداً على أبي سفيان بن الحارث:

هَجَوْتُ مُبَارَكاً بَرّاً حَنِيفاً أَمِينٌ اللَّهُ شِبْمَةُ الْوَقَاءِ^(٣)
وهذا التعبير هو التعبير نفسه في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

حَمَدْتُ اللَّهَ حِينَ هَدَى فُؤَادِي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالَّذِينَ الْحَنِيفِ^(٤)

وقد أجمع العلماء المسلمون على أن «الحنيف»، في كل الشواهد السابقة، تعني:

-
- (١) العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ص ١٤٢، ١٤٤.
 - وانظر ص ص ١٣٩ - ١٤٨. ولعل الصفة الصحيحة هي: «الجنيف» كما سيوضح الراغب الأصفهاني. وانظر ما سبق.
 - (٢) اللسان، «حنف».
 - (٣) ديوان حسان، ج١، ص ١٨.
 - (٤) اللسان، «حنف». التاج، «حنف».

يقول أحدهم، مما يجمع الدلالات السابقة كلها:
 تَعَلَّمْ أَنْ سَيَهْدِيكُمْ إِلَيْنَا طَرِيقًا لَا يَجُورُ بِكُمْ حَنِيفٌ^(١)
 وهذا المعنى واضح في قول الجعدي:
 وابن عفان حنيفاً مسلماً ولحوم البدن لما تُثَنَّقَلُ^(٢)
 وعلى الرغم من أننا متمسكون بأن مصطلح الحنيفية إسلامي،
 فإن هذا لا يمنع أن يكون اتخذ له دلالة أخرى في غير اللغة العربية،
 فإذا خرجت الحنيفية عن التوحيد الخالص، كما جاء به الإسلام، فهي
 ليست من الحنيفية في شيء، وإنما هي فرقة ضالة تأتي في اللغة
 النبطية بمعنى: اليوناني، أحد الصابئة، أحد المانويين، أي ضال في
 اللغة السريانية، فالوثني *Hanpa*، والتعاليم المانوية هي: *Hanputa*^(٣).
 أو: «أحد أتباع فرقة من فرق ديانتهم السريانية - العربية المتأثرة
 إلى حد ما بالهليينة»^(٤).

وعلى هذا يجوز أن يكون معنى حنف في معنى حنث^(٥). أما
 في المعنى القرآني، فالحنيفية هي التوحيد، الإسلام. والحنث غير
 معنى الحنف قبله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْنُثْ﴾ [ص: ٤٤]. ﴿الْحَنِثِ
 الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦].
 لقد أدركنا أن معنى الحنيفية: هو الإسلام، أو التوحيد، في
 بيتي كل من أبي ذئيب وصخر الغي، وحسان، وهو المعنى الذي شاع
 بعد ذلك في مثل قول الشاعر الأموي، جران العود:

(١) اللسان، «حنف». (٢) شعره، ص ٩٤.

(٣) *Andrnm Mohammed., PP. 152-153.*

(٤) نبيه أمين فارس ومارولد وجلدن، تطور معنى كلمة حنيف القرآنية، مجلة
 أبحاث، م ١٣، (١٩٦٠م)، ص ٣٦.

وله في اليهودية الدلالة نفسها، وهم في السريانية: الضالون.

انظر: *Tisdal, The Original Sources of the Quran, P.272.*

(٥) اللسان، «حنف». وانظر «حنف»، حنف.

وانظر: *Kister, Studies..., "Al - Tahannuth"*.

وَلَمَّا رَأَيْنِ الصُّبْحَ بَادِرْنَ ضَوْءَهُ رَسِيمَ قَطَا الْبَطْحَاءِ أَوْ هُنَّ أَقْطَفُ
وَأَذْرُكُنَّ أَعْجَازاً مِنَ اللَّيْلِ بَعْدَمَا أَقَامَ الصَّلَاةَ الْعَابِدُ الْمُتَحَنِّفُ
وقال أيمن بن خريم:

وَصَهْبَاءُ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُ بِهَا حَنِيفٌ وَلَمْ تَنْفُزْ بِهَا سَاعَةً قِذْرُ
والعجب أن يسيء نبيه فارس وزميله، قول الشاعر الإسلامي،
أبي الأخرز الحماني:

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا كَمَا أَسْجَدَتْ نَضْرَانَةُ لَمْ تَحَنِّفِ
فيقولان: «إن الإشارة إلى عدم الركوع في الصلاة تمنع احتمال
أن يكون المراد من كلمة حنيف هنا هو المسلم».

فمعنى البيت واضح، وهو: أن هويّ الناقة على ساقها، يشبه
هويّ النصرانية ساجدة دون ركوع، وهو ما لا يفعله الحنيفي
(المسلم)، فمعنى «لم تحنف»: أي غير مسلمة، إنها لا تتضمن
المعنى الإسلامي. بل إن من سوء الفهم قولهما عن قول جرير في
الفرزدق:

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ إِذْ تَحَنَّفَ كَارِهَاً أَضْحَى لِتَغْلِبِ وَالصَّلِيبِ حَدِينَا
فقالا: «إن البيت الوحيد الذي تؤدي فيه كلمة حنيف معنى
مسيحي بوضوح تام هو بيت جرير».

وهذا خطأ في الفهم واضح، إذ المعنى: أن الفرزدق إذا أراد أن
يكون حنيفياً (مسلماً)، فإن حنيفيته (إسلامه)، هو أن يتشبه بالنصارى،
أي: إنه لا علاقة له بالحنفية (الإسلام)، فهو فاسق على الرغم من
إسلامه.

وقد ظل معنى الحنيف، أي المسلم في الشعر الإسلامي يتكرر،
كقول ذي الرمة:

يَظَلُّ بِهَا الْجِزْبَاءَ لِلشَّمْسِ مَائِلًا لَدَى الْجِذْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُكَبَّرُ
 إِذَا حَوَّلَ الظَّلَّ الْعَشِيَّ رَأَيْتَهُ حَنِيفًا وَفِي قَرْنِ الضُّحَى يَتَنَصَّرُ^(١)
 وقال ظالم بن البراء الفقيمي:

إِذَا جَعَلَ الْجِزْبَاءَ وَالشَّمْسُ تَلْتَطِي عَلَى الْجِذْلِ مِنْ حَرِّ النَّهَارِ يَقُومُ
 يَكُونُ حَنِيفًا بِالْعَشِيِّ وَبِالضُّحَى يُصَلِّي لِضُرَائِيَةٍ وَيَصُومُ^(٢)

وقال الراعي في جمع «حنيف»، «حنفاء»:

أَخْلِيْفَةَ الرَّحْمَنِ إِنَّمَا مَشَّرَ حُنْفَاءَ نَسْجُدُ بُكْرَةَ وَأَصِيلًا^(٣)(٤)
 إننا دوماً إزاء ضدين: الحنيفية (الإسلام)، والنصرانية.

وربما أوهمتنا إعادة اشتقاق الحنيفية إلى اللغة السريانية *Hanpa*،
 وفي التارجوم *Targum*، *Hanepa*، إلى أنها غير عربية، كما زعم
 أوبرمان^(٥)، على حين يدل اللفظ على أنه عربي الأصل:

فالحَنَفُ: هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجَنَفُ ميل عن
 الاستقامة إلى الضلال.

والحنيف هو المائل إلى الاستقامة. قال عز وجل: ﴿قَائِلًا لِلَّهِ
 حَنِيفًا﴾^(٦).

(١) ديوانه، ج٢، ص ٦٣١ - ٦٣٤.

الجدل: أصل الشجرة. مائل: منتصب. قرن الضحى: حاجبها وناحيها.

وانظر، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص ٥٣١.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص ٥٣١.

(٣) اللسان، «حنف».

(٤) شعر، ص ٥٦. كما في الحاشية.

(٥) Obermann, *Islamic Origins...*, in *The Arab Heritage*, P.80.

ويزعم رودينسون أنها جاءت من الآرامية: Rodinson, *Mohammad*, P.64.

(٦) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٦٠.

وقد سُمى القرآن الكريم إبراهيم عليه السلام: «حنيفاً».

وأصبح الحنيف في نظر الفرق الأخرى ضالاً، لأنه انحرف عن سيطرة المعتقد الوثني، هذا هو معناه في أصل اللغة العربية، ولا بد أن يكون هذا هو معناه في بقية اللغات السامية، لأن إبراهيم عليه السلام وصف به، وبعد أن تحرفت الديانات السماوية السابقة على الإسلام، أصبحت الكلمة تعني مذهباً سريانياً خاصاً؛ أي إن الحنيفية ديانة إبراهيم السليمة لم تعد هي دين التوحيد الخالص، ويؤكد المعنى الأول، وأنه عربي الأصل، الوصف الآخر لإبراهيم عليه السلام:

﴿حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

فالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، مارس العرب شعائرها، حتى تحولت تدريجياً إلى الوثنية، ولم يبق من أصولها، إلا الاختتان، وحسج البيت^(١)، والاعتسال، بل إن هذه ذاتها عادت، لتصبح طقوساً، وليست من أصل العبادة المتوجهة لله وحده. والحنيفية دين إبراهيم أصبحت مجهولة، كما قال الراهب لزيد بن عمر: (إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم)^(٢).

الشعراء الحنفاء

وإذ يثبت لنا أن الحنيفية، ديانة الإسلام فقط، وأن الحنيف هو المسلم وحده، فإن وصف عدد محدود بأنهم حنفاء، يصبح غير مقبول إطلاقاً. وما الادعاء بأن مثل: أمية بن أبي الصلت، أو ورقة بن نوفل، أو زيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن الحويرث بأنهم حنفاء، إلا تجاوز للواقع نفسه؛ فهؤلاء جميعاً، إما نصارى، وإما متأثرون باليهودية، خلطوا المعتقدات الوثنية والأساطير العربية بما تلقفوه من أخبار أهل الكتاب، كأمية بن أبي الصلت، أو ممن تأثر

(١) اللسان، «حنف». وانظر ما سبق من تعليق على دين الصابئة.

(٢) الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب مختصر سيرة الرسول ﷺ، ط ٢، ص ٤٦.

بالإسلام عند قيامه، وظل متذبذباً لا يستقر على رأي.

لقد بلغت الوثنية من التنظيم والسيطرة على عقول أتباعها حداً غاية في القوة والشدة. فعلى حين نجد قوم إبراهيم يتنازلون تحت ضغط إبراهيم عليه السلام عن التطرف في تسمية معبوداتهم، فيقرون ذات مرة بأنهم يعبدون أصناماً:

﴿قَالُوا تَعْبُدُونَ أَصْنَامًا فَظَنُّوا لَهَا عَنكِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: ٧١].

نجد العرب الوثنيين يتعنتون مع النبي ﷺ، فلا يقرون بأنها أصنام، وإنما هي في نظرهم آلهة.

ومن المفارقة المدهشة أنهم كانوا في أشعارهم يرون أن النصراني الذين جَسَمُوا العذراء مريم وعيسى والروح القدس، هم عبدة الأوثان سواهم، قال الأعشى:

يَطُوفُ الْعُقَاةُ بِأَبْوَابِهِ كَطُوفِ النَّصَارَى بِبَيْتِ الْوَثْنِ^(١)
ومن هنا استوحى عنترة صورة مريم، وهي تطوق عيسى، في مجسمات النصراني، عندما قال:

تَجَلَّلْتَنِي إِذْ أَهْوَى الْعَصَا قِبَلِي كَأَنَّهَا صَنَمٌ يُغْتَادُ مَعْكَوْفُ^(٢)
كما قال عبيد بن الأبرص سابقاً:

وتبدلوا اليعسوب بعد إلههم صنماً فقرؤا يا جديلاً وأعدبوا
أي إن جديلة اتخذت اليعسوب معبوداً آخر، هو في نظر الجماعة الأخرى: صنم. أما صنمهم الأول، فهو: «الإله».

(١) ديوانه، ص ٢١.

العقاة: السائلون.

(٢) ديوانه، ص ٥٣. تجللتني: علتني. العصا: كناية عن السيف. يعتاد: يزار. معكوف: يعكف عليه دون انقطاع.

ولقد بلغوا في تصوراتهم أن خلقوا من ناقة صالح عليه السلام أسطورة، فجعلوا لها ابنا يرغو في السماء، وهو ما لم يذكره القرآن الكريم، ذلك أنهم جعلوا الناقة هي الإلهة، وحوارها، هو ابنها المعبود، كما وضع لنا من ادعائهم أن آلهتهم هم بنات الله، وهي الفكرة التي ظهرت جلية في التفكير المسيحي، وقال فيها عز من قائل:

﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٠].

فمريم: الناقة، والمسيح: الحوار. وليس عجباً بعد ذلك أن يجادل الوثنيون العرب عن معتقداتهم، محتجين ببنوة المسيح عليه السلام، والصورة واضحة في عبادة العجل في المعتقد اليهودي. وفي رغاء الحوار يقول علقمة الفحل:

رَعَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السَّمَاءِ فَدَا حِصُّ بِشِكَّتِهِ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلِيبٌ^(١)
ومثله قول أمية بن أبي الصلت:

كَنُموْدَ الَّتِي تَفْتَكِتِ الدِّيبِ نَ عَيْبًا وَأَمَّ سَقْبِ عَقِيرَا
نَاقَةَ لِإِلَهِ تَسْرُخُ فِي الْأَرْضِ وَتَنْتَابُ حَوْلَ مَاءِ مَدِيرَا
فَأَتَاهَا أَحْيَمَرُ كَأَخِي السَّهْهِ مِ بِعَضْبِ فَقَالَ كُونِي عَقِيرَا
فَأَبْتُ الْعُرْقُوبَ وَالسَّاقَ مِنْهَا وَمَضَى فِي صَمِيمِهِ مَكْسُورَا
فَرَأَى السَّقْبُ أُمَّهُ فَارَقَنَّهُ بَغْدَ الْفِ حَنِيبَةً وَظَوُّورَا
فَأَتَى صَخْرَةً فَقَامَ عَلَيْهَا صَفْقَةً فِي السَّمَاءِ تَغْلُو الصُّخُورَا

(١) ديوانه، ص ٤٦. داحص: فاحص برجليه عند الموت. لم يستلب: أي كأن القتل والمصرعين أكثر من أن يحاط بهم. الشكة: جملة السلاح.

فَرَعَا رَغْوَةً فَكَانَتْ عَلَيَّهِمْ رَغْوَةُ السَّقْبِ دُمُرُوا تَذْمِيرًا^(١)
وعلى الرغم مما في هذه الأبيات من أثر قرآني على النحو
التالي:

تفتكت الدين عتياً

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿فَعَمَّرْنَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّنِيعَةَ﴾ [الذاريات: ٤٤].

وقوله:

تنتاب حول ماء مديرا

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:

١٥٥]. وقوله:

صعقة في السماء تعلق الصخورا

﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَبَهْدِيتُهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَعِقَةٌ

الْعَذَابِ الْمُؤَنِّبِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وعلى الرغم من أن السطلي يرى أن هذا الأثر القرآني: «يدل
على خيال قصاص أخذ المعاني من القرآن، ثم أضاف إليها كثيراً من

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة السطلي، ص ٤٠٥ -
٤٠٧.

تفتكت: فتكت. العتي: البغي. السقب: ولد الناقة. تسرح: تخرج إلى
المراعي. تنتاب: تقصده مرة تلو أخرى. المدير: الممدور، والمدر: تطيين
وجه الحوض لسد ما بين حجارتها لئلا ينشف. الأحيمر: عاقر الناقة. كأخي
السهم: سريع كالسهم. العصب: السيف القاطع. أبت: قطع واستأصل.
العقوب: العصب الذي يضم ملتقى الوظيفين والساقين. الصميم: العظم الذي
به قوام العضو. الإلف: ألفة الصداقة. الحنية: الحانية البرة بولدها. الظؤور:
الملازمة لولدها. قام: وقف. الرغوة: المرة من الرغاء.

التفصيلات التي تذكرنا بما وصفه القصاص من أحاديث مكذوبة في العصر الإسلامي^(١)، فإن هذا الأثر القرآني يكشف لنا حقيقة ما نفهمه من الحنيفية. فالآيات المذكورة هي آيات مكية، كما ورد ذكر عقر الناقة في سورة الأعراف: ٧٣ - ٧٧، وسورة القمر: ٢٧ - ٢٩، المكيّتين كذلك. فأمية بن أبي الصلت الذي زُعم أنه أحد الأحناف، كان مطلعاً على ما عند أهل الكتاب، وكان يعلم أن نبياً سيبعث:

«كان [أمية] يخبر بأن نبياً يبعث قد أظل زمانه، ويؤمل أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ وقصته، كفر حسداً له»^(٢).

إن الشيء الوحيد الذي بقي من الحنيفية هو الحرم، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا إِن نَّبَّحْ أَلْهَدَىٰ مَعَكَ نُنَحِّطُ مِنْ أَزْوَاجٍ أَوْلَمِ نُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا مَّامِنًا يُجِبُّونَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧].

وقد تحول إلى معبد وثني تُجمع فيه الأصنام، كما تحولت الشعائر الحنيفية إلى طقوس وثنية، الهدف منها إرضاء الآلهة، وأصبح ترديد ذكر الله فيها، وفي غيرها من مناسبات، يعادل ما تؤديه الأمم الوثنية للقوى العليا، أي إن الله، تعالى ذكره، كان في منظور الوثنيين عامة، وليس العرب خاصة، الإله السماوي الذي تمثله على الأرض آلهة مضارعة له؛ فالحج مثلاً، لا يختلف عن حجّ الهندوس إلى نهر الكنج، ومكة في معتقدهم مثل: أور في العراق، أو دلفي في اليونان، أو طيبة في مصر، أو بنارس، مركز الديانة الهندوسية. والملاحظ أن العرب كادوا لولا الإسلام أن يتخلوا تدريجياً عن

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص ٢٠١.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ٤٥٩.

التمسك بقيمة (الحرم) الدينية، إذ بنوا معابد خاصة بهم يعتمرون إليها كما هو الحال في ذي الخلصة، بل أطلقوا على معابدهم مسمى الكعبة «كعبة نجران».

وفي الحج إلى الأقيصر يقول ربيع بن ضُبُع الفزاري:
فَبِإِنْسِي وَالَّذِي نَفْسُ الْأَنْامِ لَهُ حَوْلَ الْأَقْيَصِرِ تَسْبِيحٌ وَتَهْلِيلٌ^(١)
ومن مناسك الحج عند الوثنيين، ريام، «وهو منسك في أرحب، فكانوا يحلون إحرامهم عنده»^(٢).

ويمكن في ضوء هذه التفسيرات أن نعيد كل ما قيل إنه من العادات العربية القديمة مثل: قلب القميص، الرتم... إلخ^(٣). إلى طقوس وثنية خالصة، تؤمن بالأرواح الشريرة، والقوى الخفية المؤذية. وكان أمية بن أبي الصلت يستمع إلى القرآن الكريم، فأخذ منه مثلما رأينا في مثل تلك التأثيرات، وأدخل عليها ما وصل إليه علمه من أساطير، ومزج الفكر الوثني بالإسلامي، ولهذا ورد أن الرسول ﷺ قال:
«آمن شِعْرَهُ وَكَفَرَ قَلْبَهُ»^(٤).

وكيف يقبل من حنفي أن يضم فرعون إلى داؤد وهود وموسى عليهم السلام، فيقول:

حَيِّ دَاوُدَ وَابْنَ عَادَ وَمُوسَى وَفَرَنْعَ بُنْيَانَهُ بِالْثَّقَالِ^(٥)

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٩.

(٢) بافقيه، تاريخ اليمن، ص ٢٠٥.

(٣) انظر هذه العادات في: الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص ٥١٠.

(٤) البغدادي، الخزانة، ج ١، ص ٢٤٩.

(٥) ديوانه، ص ٤٤٤.

وانظر تقليده قصة موسى وفرعون، كما وردت في القرآن الكريم؛ ديوانه، ص ٥٣٩.

ولا بد بعد هذا أن نشير إلى عدم الدقة في التمييز بين الأشعار،
فمما نُسب إلى زهير بن أبي سلمى، قوله:

بَدَا لِي أَنِّ السُّلَّةَ حَقٌّ فَرَادَنِي إِلَى الْحَقِّ تَقْوَى اللَّهِ مَا كَانَ بَادِيَا
بَدَا لِي أَنِّ النَّاسَ تَفْتَى نَفُوسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَلَا أَرَى الدَّهْرَ فَانِيَا
والذي يقول عنه صادق مكي:

«هذه حقيقة توصل إليها زهير بن أبي سلمى بالتأمل، وفيها
أن الله حق، وهذه القناعة زادته تقوى لله. كما توصل إلى حقيقة ثانية
مؤداها أن كل شيء فأن سوى الدهر...»^(١). والحق أن هذين البيتين
من ضمن قصيدة منسوبة إلى أبي صرمة الأنصاري، ومعنى الشعر فيها
إسلامي كلية، ولا يمت إلى الجاهلية في شيء.

ويقول الفيومي عما نسب إلى علاف بن شهاب التيمي:

«كان يؤمن بالله تعالى ويوم الحساب وفيه يقول:

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة فأخذت منه خطة المقتال
وَعَلِمْتُ أَنَّ السُّلَّةَ جَارِ عِبْدَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ بِأَخْسَنِ الْأَعْمَالِ^(٢)
فإذا كان هذا إيمان بيوم الحساب حقاً، والشاعر ليس نصرانياً
ولاً يهودياً، فأين منه قوله تعالى عنهم: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾، وقول
عمر رضي الله عنه: «إن القوم لم يكونوا يرجون جنة...».

ألسنا هنا أمام اعتقاد وثني بالانبعاث، كما استشهد هو أيضاً
بدفن الراحلة والبليّة؟^(٣).

(١) ملاح الفكر الديني في الشعر الجاهلي، ص ٧٧.

واختصاراً لمواقف الكتاب العرب، وعدم وضوح الصورة في أذهانهم عن
الحنيفية، يمكن النظر في: قباوة، سلامة بن جندل، ص ١١٠ - ١٢١.

(٢) في الفكر الديني الجاهلي، ص ٢٧٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

زيد بن عمرو بن نفيل

وإذ يضطرب الدارسون حول تحديد موقفهم من كل المفاهيم السابقة، نراهم كثيري الاحتجاج بشخصية عمرو بن نفيل، ولكن ضمن ذلك المسار المشوش نفسه، فيروون أنه:
«كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول:

يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري.
ومما يروى عنه قوله:

أَرِيًّا وَاجِدًا أَمْ أَلْفَ رَبِّ أَدِينُ إِذَا تَمَقَّدَتِ الْأُمُورُ
عَزَلْتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الْخَبِيرُ
فَلَا الْعُرَى أَدِينُ وَلَا ابْتَتَيْهَا وَلَا صَنَمِي بَنِي عَنَمِ أُرُورُ
وَلَا هَبَلًا أُرُورَ وَكَانَ رَبًّا لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حَلَمِي صَغِيرُ
ويعلق برو على هذا فيقول:

«إن هذه الروايات وغيرها من أقوال الأحناف - وإن كنا لا نجزم بأنه لم يدخل عليها تعابير ومفاهيم - إسلامية هي دليل بين على أنه كان هناك حركة أشبه بالثورة على الأوضاع الدينية الراهنة، التي عجزت عن أن تملأ وجدان العربي، ولذا انحط شأنها انحطاطاً متواصلًا كان يرافقه أبداً تعظم في أهمية الشعور الديني، القائم على أساس الإيمان بالله الواحد السماوي...»^(١).

ومع ذلك نجد آخر يصف موقف زيد هذا، فيقول محمد علي

مختار:

(١) تاريخ العرب القديم، ص ٣١٣ - ٣١٤.

لمزيد من الاطلاع على الموقف المعاصر من الشعر الديني قبل الإسلام، انظر، دراسة محمد عبده عزام، غير المنشورة:

A Critical Study of the Poetry... PP. 13-105.

«يمثل هذا الرجل الحنيفة كدين مبهم»^(١).

ونستدل من هذا على أن زيدا - ومن ضم إليه - كانوا قريبي العهد بالإسلام، يقول دلو:

«إن معظمهم عاش في الأيام الأخيرة من الجاهلية العربية، وأن بعضهم عاش في أيام الإسلام الأولى»^(٢).

لقد سبق أن استجلينا أن مفهوم الحنيفة السابق على الإسلام، لم يكن المقصود به حنيفة الإسلام، ويؤكد نبيه عاقل هذا حين يعتمد على ما رواه السهيلي عن زيد بن عمرو بن نفيل، فيقول:

«خرج إلى الشام... فقابل أشخاصاً يهوداً ونصارى وشرح لهم آراءه ونظرياته الدينية وتناقش معهم وأعلمهم أنه يريد ديناً غير اليهودية والنصرانية فقالوا له: لا نعلم إلا أن تكون حنيفاً، فقال لهم: وما الحنيفة؟ قالوا: هي دين إبراهيم، وأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وأنه كان يعبد الله. وبعد هذا النقاش رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني على دين إبراهيم»^(٣).

ويحدد نبيه عاقل رأيه بعد ذلك في الحنيفة، فيقول:

«الحنيفية... لم تكن لها أبعاد محدودة أو حتى وجود واضح في الحجاز بدليل أن زيد بن عمرو بن نفيل وصحبه حين أرادوا التعرف على معناها وتعاليمها قصدوا الشام»^(٤).

ثم يعلق:

«أن الحنيفة لم تكن معروفة بالحجاز بالقدر الذي يحاول البعض

(١) دراسات تاريخ الجزيرة العربية، «الحنيفية والحنفاء»، ص ١٧٠.

(٢) جزيرة العرب قبل الإسلام، ج ٢، ص ٢٤٢.

(٣) تاريخ العرب القديم، ص ٣٠٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ص ٣١٠ - ٣١١.

تصويره^(١)، فزيد بن عمرو بن نفيل، كان حنيفاً، على غير حنيفة الإسلام، وكان في أغلب اتجاهه مجتهداً، متسائلاً، أي إنه يمثل حالات فردية لا أثر لها في ذلك الهيكل الكبير من الوثنية، وإن ما رواه السهيلي يثبت أن اليهودية والنصرانية والوثنية، كل سواء في التجسيم، والتجسيد والتصور، بل إن زيدا نفسه كان وثنياً حتى سن متأخرة من حياته :
ولا هبلاً أزور وكان رباً لنا في الدهر إذا حلمي صغير

لقد كان زيد: «أمة وحده»^(٢).

إنه شخصية فريدة، لا يمكن القياس عليها، أو اتخاذها أنموذجاً عملياً على مفهوم التوحيد، ولا تقدم إطاراً فكرياً مجابهاً للوثنية، أو تأسيساً نضالياً للإسلام.

والغريب في الأمر أن مسمى «الحنيف»، أو «الحنفاء»، كان يطلق أيضاً على الوثنيين من العرب، إذ:

«كان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم»^(٣).

وبهذا تتسع التسمية لتشمل الوثنيين والصابئة، حتى جاء الإسلام، فصارت صفة للمسلم وحده.

وبعد، فلو كان للحنفاء طريقة ومنهاج، أو وجود، ووفق التصور الإسلامي، لا تهتم الوثنيون محمداً ﷺ بأنه يتلقى عنهم ويصدر منهم، لا سيما والمحتجون بوجود هذه الفئة يركزون على

(١) المرجع نفسه، ص ٣١١.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٦٣.

أما قس بن ساعدة، الموصوف بأنه تحف (أنظر، ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ٣١٥)، فهو نصراني (أنظر، الجاسر، المنطقة الشرقية، ج ٤، ص ١٧٢٦).

(٣) اللسان، حنف.

الخروج إلى غار حراء^(١) للعبادة، ولكن الوثنيين لم يقولوا ذلك، وإنما اتهموا الرسول ﷺ بتلقي العلم من رجل قال عنه القرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُوا وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّيْتٌ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ إِفْكٍ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤].

وفي هذه الآية إشارة إلى اليهود، أو موال للعرب من الفرس ممن دان بالنصرانية^(٢)، وليس من بينهم من ينسب إلى الحنيفية.

أما تعبد النبي ﷺ في غار حراء، فقد ذهب المستشرقون في تفسيره كل مذهب^(٣) وما هو في الحقيقة إلا عبادة، ولا يشبه ما كان يقوم به وثنيو مكة من صعود إلى الجبال، فاعتزال النبي ﷺ إنما كان للتأمل في ملكوت الله الواحد الأحد؛ أما الوثنيون، فكانوا يؤدون ذلك ممارسة وثنية لها علاقة بتقديس الجبال تقرباً إلى مواطن الآلهة أو الأرواح.

وبعد ذلك، فلنُفسِح مجالاً للتحريف والتبديل، بل الوضع والانتحال؛ مثل تبديل الآلات، بلفظ الجلالة الله، أو زيادة بعض

(١) جواد علي، المفصل، ج٦، ص ٤٠٤.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج١٨، ص ٣٢٣.

(٣) انظر مثلاً: Oberman, *Islamic Origins...*, *In the Arab Heritage*,

PP. 59-119.

الآيات ذات الطابع الإسلامي الصرف، أو نسبة أشعار ذات مضمون توحيدي خالص إلى بعض الجاهليين... إلخ.

وأخيراً، فإن هذه الفصول الثلاثة تبرهن لنا مدى انتشار الوثنية بين العرب، بل مدى تأثير المنتمين إلى الديانتين اليهودية والمسيحية بالأفكار الوثنية، مما يبطل بحق ادعاءات أعداء الإسلام بأي أثر خارجي، لا سيما الربانيون (الأخبار)^(١).

أما فيما يخص لفظ الجلالة «الله»، فإن الحقيقة المطلقة حول استعماله هي: أنه اسم لله سبحانه وتعالى، عرفته الخليقة منذ الأزل، واحداً واحداً، لا ند له ولا شريك؛ فلما تحولت البشرية إلى الوثنية، أطلقوا الاسم على كبير معبوداتهم، وقد ظلت عناصر اشتقاقية موجودة في ذلك الاسم: إل - إيل - إيلو - لا... إلخ، ثم جردوا ألوهية الله جل شأنه، من بقية أسمائه وصفاته، فأسبغوها على آلهتهم وحدها: العزيز/ العزى، المنون/ مناة، الساعي/ سواع، الغياث/ يغوث.

أما الله، فهو كبير الآلهة المحسوسة..

ومثلوا كل هذه في صور حيوية شتى من حجارة وكواكب، وحيوان... إلخ. وكان الله في أذهانهم هو هذا، أما الله في الإسلام فهو الكل المطلق.

وكانت دعوة محمد ﷺ - كدعوة بقية الأنبياء والمرسلين في كل أمة، وفي كل زمان، قبل الإسلام - دعوة إلى تلك الحقيقة المطلقة: التوحيد، وهي دعوة لم تأت تطوراً، أو تعلماً بشرياً، وإنما هي معرفة إلهية، وقد جاءت وللوثنية مظاهر شتى، ولكنها وثنية عالمية، أطبقت على الأرض بظلماتها، حتى جاء الإسلام بنوره.

(١) Kister, *Studis in Jahiliyy and Early Islam*, PP. 223-236.

وعلى العكس مما يقال من: «تدهور عبادة الأوثان» قبل الإسلام، فإن الصحيح هو استفعال خطر الوثنية، واشتداد شوكتها وانتشارها، بل إنه من غير الصحيح أبداً: «أن اليهودية والنصرانية كان لها أثرها في تهيئة العرب لتقبل التوحيد الإسلامي»، لأن النصرانية واليهودية كانتا لولا ظهور الإسلام، آيلتين لا محالة، إلا وثنية خالصة، بدلاً من المسخ والتحريف.

ومن ثم علينا، في ضوء هذا التحقيق أن نعيد قراءتنا في دراسات مضت، حول موضوعات مثل: عبادات العرب قبل الإسلام، القيم الخلقية عند العرب، أخلاق العرب... وعلينا أن نعرض كل هذا على القرآن والسنة النبوية، قبل أي حديث آخر.

ومن المهم أن نقصر أحاديثنا على العرب الناطقين باللغة العربية «الفصحى»، أو أن نتوسع في الدراسة، لتشمل كل معرفة عند «العرب» الآخرين، كحمير، والأنباط، والشموديين، والصفويين؛ بل كل من سكن المنطقة ممن يسمون بالساميين، كالبابليين والأكسونيين، والكنعانيين... وربما أضيف إليهم المصريون.

وحبذا لو نظرنا إلى العرب الشماليين في حجمهم الطبيعي: وثنيين، أميين؛ حتى إن شعرهم نفسه لا يخرج عما لدى الأمم الوثنية الأمية في عصرهم، دون مبالغات، أو تفخيم ذات.

ولعل قول سُرَاقَةَ بن عوف بن الأحوص، في لبيد بعد إسلامه، يختصر لنا كل ذلك الحديث، يقول:

وَجِئْتُ بِبَيْدِينَ الصَّابِئِينَ تَشْوِبُهُ
بِأَلْوَابِحِ نَجْدٍ يُغْدِ عَهْدِكَ مِنْ عَهْدِ
وَإِنْ لَنَا ذَاراً زَعَمْتَ وَمَرْجِعاً
وَتُمْ إِيَابُ الْقَارِظِينَ وَذِي الْبُرْدِ^(١)

(١) أشعار العامريين الجاهليين، ص ٧٩. وانظر قول هند بنت عتبة، الخالديان، الأشباه والنظائر، ط، ص ٩٣.